المشرق

اكتشاف مدارج برديَّة اراميَّة في مصر

للاب سبستيان رنزفال اليسوعي

ذكر المشرق مرارًا ما اكتُشف من الكتابات البُرديَّة في مصر (٩: ٨٥١ و١٠: ١٤٥) وممَّا استلفت اليهِ موخَّرًا ابصار العلماء عدة مدارج برزت الى عالم الوجود في مدينة اسوان سنة ١٩٠٤ فبادر المثري روبرت موند (Mond) ونشرها على نفقتهِ وعُني بقراءتها وضبطها وتنقيحها وشرحها الاستاذان كُولي وسايس (Cowley et Sayce) اللذان وضعا فيها كتابًا اقبل عليهِ الاثريون ليقتبسوا من فوائدهِ العديدة. ولكي نُطلع قرّاءنا الكرام على الآداب الآرامية في مصر ها نحن نورد لهم ما كتبهُ العلامة كلرمون غانو في هذا الموضوع على صحائف مجلَّة الانتقاد (Revue critique, 1906, p. 341) فيرى القارئ اللبيب ما لذلك المستشرق الشهير من صائب الرأي ودقَّة النظر في هذه الابحاث. قال:

« جادت علينا حتى الآن ارض الفراعنة بكثير من مدارج البردي المصريَّة واليونانيَّة واللاتينيَّة والقبطيَّة والعربيَّة غير انَّها ضنَّت علينا بالآثار المكتوبة باللغات الساميَّة القديمة لانَّ مجموع البابير المرقوم باحرف آراميَّة كان لا يتجاوز منذ ثلاثين سنة عدد الاصابع وهو من الاندثار على جانب عظيم ومع ذلك تهافت عليهِ العلماء واجهدوا فيهِ النفس واعملوا بصيرتهم في الاطلاع على فحواه. لكنَّ آراءهم تباينت في قراءتهِ ومعناه مع كونهم اجمعوا على نسبتهِ الى عهد البطالسة كما انهم نسبوا الى ذلك العهد كتابات أُخرى وجدت ايضًا في مصر تشبه الكتابات البرديَّة لغةً وخطًّا لكنَّها نُقشت على الحجارة

« وفي اثناء سنتي ١٨٧٦ و١٨٧٧ أمعنتُ النظر في هذه المسائل فأدى بي البحث الى القول بان الكتابات المشار اليها ترتقي الى العهد الفرس الحخمانيين (Achéménides) فهي اذاً جزيلة الفوائد لعلم التاريخ لانها اقدم عهداً من الدولة البطالسة وتشير الى انقلاب عظيم في عالم السياسة فعُدَّ رأيي ضرباً من الجسارة خالياً من التروي والتبصر وكان حملني عليه وعلى التمسك بهِ تفسير القطعة الملقَّبة ببردي تورينو (C. I. S. II, nº, 144) فقلتُ ان ثمَّ مقدَّمة معروض رسمي رفعهُ رجل يدعى « فخيم » الى احد المرازبة او الى من كان ينوب عنهم في مصر وهو من الاجانب وان اسمهُ « ميتراهيشت » يدل على عجميتهِ. واوضحت ايضاً ان صورة هذه الكتابة تحاكي صورة المعروض الذي قدَّمهُ قاطنو السامريَّة الى الملك ارتحشستا ليمنع اليهود عن ابتناء الهيكل وقد روى لنا عزرا نصَّ هذا المعروض في سفرهِ الاول (٤: ١١—١٧). وتأييداً لرأيي بيَّنتُ ان كل الحوادث التاريخيَّة والاثريَّة والمسكوكات القديمة تُثبت ان اللغة الآراميَّة كانت لغة ديوان الدولة الحخمانيَّة لاسيما في الاقاليم الغربيَّة وفي مصر. وآل بي هذا المبدأ الى الجزم بان كتابات ذلك العهد برديَّة كانت او صخريَّة وُضعت باللغة الآراميَّة

« وما عتَّم الزمان ان اتانا بيِّنةٍ اولى وذلك باكتشاف كتابة اراميَّة على ضريح في سقَّاره (١ واضحة التاريخ ترتقي الى السنة الرابعة لزركسيس. فاحتجَّ المعارضون لنا قائلين: ان ما يُطلق على الكتابات الحجريَّة لا يصحّ اطلاقهُ وتعميمهُ على جميع الكتابات وان كانت بينهنَّ علاقة لغةً وخطاً فالصحائف البرديَّة تقوم بذاتها ولا من داعٍ يوجب نسبتها الى غير عهد البطالسة خلافاً لما رآهُ العلماء. ولكنهُ بعد سنين طوال انبلج نور الحقّ وانجلت غياهب الشك واتت البراهين تتابعاً وكان اولها بردي الاستاذ اوتنغ (Euting) وفيهِ ذكر السنة الرابعة عشرة للملك داريوس. فسررتُ وايَّ سرور لهذا الاكتشاف الخطير لأنهُ أيَّدَ رأيي واثبتهُ واظهر اني اصبتُ في مقالي وما خانتني البتَّة فكرتي فيما قدَّرتُ. ولم ألبث ان عثرت على قطع برديّ ارامي وُجدت حديثاً في

---

١) راجع (C. I. S. II, nº, 122) ويجدر بنا الآن ان نذكر الكتابة الارامية التي وجدت منقوشة على صخر في اسوان وهي عبارة عن تقدمة دينيَّة وقد اتى بها اسم القائد الاعظم للحامية الفارسية. واما تاريخها فانهُ غاية في الدقَّة واليك بهِ: « في شهر سيوان الارامي المقابل لشهر مكهير المصري السنة السابعة لارتحشستا. . . »

سفاره فتوقفتُ الى قراءتها واذا فيها تاريخ السنة التاسعة عشرة للملك ارتحشستا

« ولم يوقفنا فقط البردي المذكور بتاريخهِ على تلك الحقيقة المبهمة وانما دلَّ ايضاً نص كتابتهِ على مصدرهِ الفارسيّ لانهُ يذكر اسم المرزبان او الحاكم المدعو « ارخم » مع القاب وصفات كثير من الموظفين حسب عادة الفرس وفي آخرهِ بعض كلمات واسماء فارسية كُتبت باللغة الارامية . فكل ذلك حمل لفيف العلماء على الاقرار بدون تردد ان البردي الموما اليهِ يرتقي الى عهد المملكة الحخمانية غير ان بعض اقسامهِ بقيت في طيّ الابهام رغماً عمَّا بذلهُ من الهمَّة من تولَّى امر طبعهِ لاوَّل مرة . واذ ذاك دقَّقتُ النظر فيهِ (١ فاصلحتُ قراءتهُ وبيَّنتُ انهُ يُستدلّ من متنهِ على مصدرهِ والغاية منهُ . وارتأيت ان عدداً من الاجانب القاطنين في مصر ولعلَّهم من اليهود — كما ثبت الامر بعد ذلك — رفعوا هذه الشكوى الى مرزبان البلاد ليقيموا الحجَّة على الكهنة المصريين سدنة هيكل الإله « خنوم » في جزيرة اليفانتين التي يدعوها في الكتابة باسم « يب » . فلا جرم والحالة هذه ان كاتبي العريضة كانوا من سكَّان الجزيرة المشار اليها او مدينة سيان — وهي اسوان — على ضفة النيل الشرقية

« فيظهر ممَّا تقدم ان اليفانتين وسيان كانتا مركزاً خطيراً للاراميين في عهد الدولة الحخمانية ولهذا وطدتُ الامل باكتشاف كتابات شبيهة بالبردي السابق الذكر . فقدَّر الله تحقيق رجائي وبانَ قوام ظني باكتشاف عجيب واليك بخبرهِ :

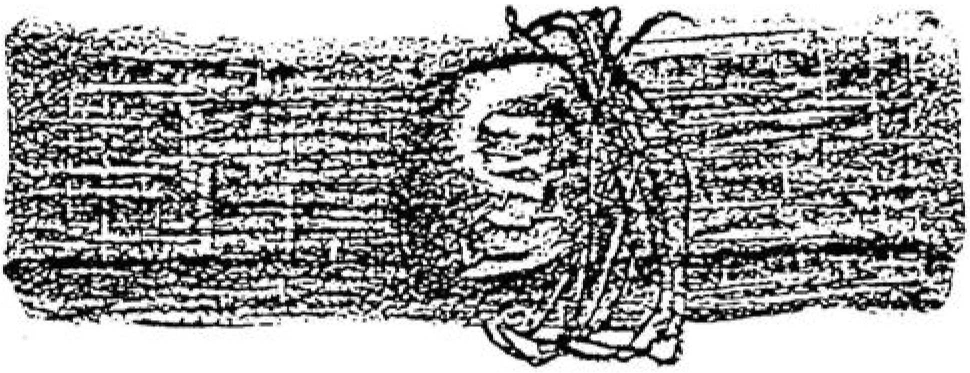
« كان السير روبرت موند في ربيع سنة ١٩٠٤ يتفقَّد اطلال مدينة ثبة وينقب عن عادياتها اذ بلغهُ انَّ فلاحاً وجد على مقربة من اسوان عدداً من اوراق البردي التي زعموا انها مكتوبة باللغة العبرية فاسرع الى المدينة المذكورة وتوفَّق الى ابتياع معظم صحائف البابير وما بقي منها اشترتهُ قرينة السيد وليام سسيل . لكنَّهما اتفقا على جمع ما وصلت اليهِ ايديهما وتقدمتهِ هديةً الى متحف القاهرة وكانت تلك المدارج تسعة (٢ مُحكمة اللفّ وعلى اثنين منها حتى الآن اثر الختم وقد كُتبت جميعها بالخط الارامي المُتقن .

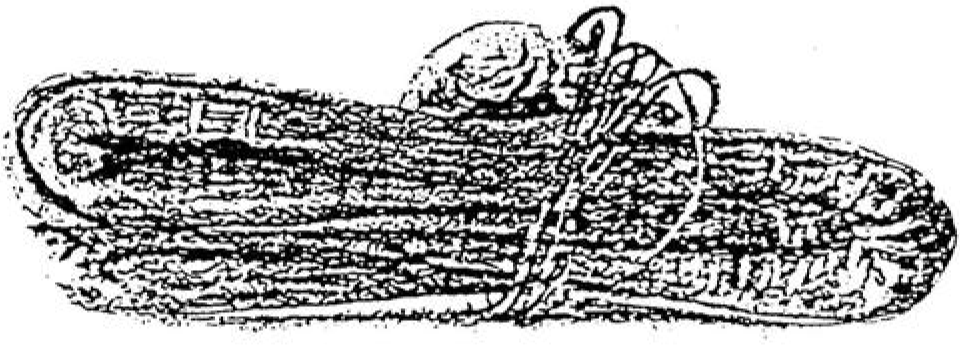
---

١) اطلب مجموعي المنون بالآثار الشرقية (Rec. d'arch. Orient. VI, 221-246)

٢) ويضاف الى هذه المدارج التسعة مدرج عاشر اختُلِس من المكان الذي وجدت فيهِ فتلاعبت بهِ الايدي الى ان ابتاعتهُ مكتبة البودلية في اكسفرد من احد المتاجرين بالعاديات

واماً عن فوائدها فحدّث ولا حرج. فعزم السير موند ان يبذل الدراهم بسخاء في سبيل نشر هذه الآثار الجليلة والحق يُقال انها ستخلّد لهُ اسماً يصبر على الاجيال. وعُني العالم م. ا. ي. كولي (M. A. E. Cowley) بقراءة هذه النصوص وتفسيرها وشرحها فأتى كتابهُ برهاناً ساطعاً على مهارتهِ وتوقد فهمهِ وحسن اطلاعهِ على دقائق الامور. ومما زاد فضلهُ فضلاً هو انهُ فتح في وجه العلماء باباً جديداً ومهّد امامهم طريقاً كانت فيما مضى وعرة المسلك وقد توغل في المباحث والمسائل فحلّ معظمها على غاية ما يُرام. اجل ان عدداً عديداً منها بقي غامضاً والسير كولي يقرّ بذلك لكن جلّ العمل قد قام بهِ العالم المذكور فعلينا ان نحذو حذوه وننتهج طريقهُ ونصلح ما غلط فيهِ





صورة المدارج الارامية المكتشفة حديثاً في مصر ملفوفة

« ويُقسم الكتاب الموما اليهِ الى جزءين متباينين يحتوي الاول منهما على ٢٧ رسماً كبيراً للنصوص الاصلية وفي الثاني شرح مطوّل يصدّر ' بمقدمة وجيزة وضعها السير

سايس طابع الكتاب. يليها ٢ً تنبيه للقارئ اوضح فيهِ السير موند ما قصده من خدمة العلم في نشرهِ لهذه الآثار . ثم ٣ً مقالة اختصر فيها السير سايس فحوى النصوص المذكورة وبيَّن ما ينجم عنها من الفوائد العلميَّة . ثم ٤ً بحث مدقّق للسير كولي في كتابة ولغة واملاء ولفظ كلمات هذه النصوص وصرفها ونحوها مع ما فيها من تواريخ السنين والاشارة الى النقود المتداولة اوانئذٍ. ثم ٥ً شرح للاسماء العلميَّة المصريَّة الواردة فيها. وقد وضع هذا الشرح العالم سيجلبرغ لما لهُ في هذه المواد من المعرفة ودقّة النظر. ثم ٦ً قائمة ذكر فيها السير سيمور دي ركشي كل الآثار الآراميَّة التي اكتُشفت حتى الآن في مصر من بابير وكتابات صخريَّة وغيرها. ثم ٧ً واخيرًا ترجمة المدارج مع شروح لها علميَّة وفهرست للاسماء ومعجم مسهب مع الاشارة الى الصحائف التي استُعملت فيها الكلمات ونقل الصحائف الى العبري ذي الحروف المستديرة »

هذا بعض ما كتبهُ العلامة كلرمون غانو في شأن المدارج الاراميَّة وسترجع الى ما باشرهُ هو في البلاد المصريَّة من البحث ليستدلّ على المحلّ الذي وُجدت فيهِ تلك الآثار الثمينة وها نحن نضيف الى المعلومات السابقة ما نراه مفيدًا لقرَّائنا فنقول:

اعلم ان مجموع المدارج الآرامية المكتشفة حتى الآن عشرة وهي تختصُّ بعائلة واحدة فتشرح احوالها وما طرأ عليها مدة ستين سنة وجميعها من عهد ملوك الفرس زركسيس وارتحشستا وداريوس الثاني وقد ذُكر فيها يوم الشهر بموجب الحسابين المصري والسامي فنجمت عن هذه المطابقة فوائد تاريخيَّة لا تحصى. وترتقي اقدم هذه الكتابات الى الثامن عشر من ايلول المقابل للثامن والعشرين من شهر باخونس من السنة الخامسة عشرة لزركسيس اعني بهِ عام ٤٧١ قبل المسيح واماَّ احدثها فهي من السنة الرابعة عشرة لداريوس الثاني عام ٤١١ قبل الميلاد. وقد ذكرت احدى هذه الكتابات — وهي التي اثبتنا رسمها — تاريخًا مهمًا نُزيد بهِ سنة وفاة زركسيس وانتقال المُلك الى خلفهِ فيستدلّ من ثم ان زركسيس قبض على زمام السلطنة ٢١ سنة

علينا الآن ان نورد تتابعًا ملخص هذه الكتابات وما هي الاَّ مجموع صكوك تُشير الى هبات بين اقارب ومعاهدات زواج وتقاسيم مواريث ووصولات وكل ذلك يوقفنا على ما كانت عليهِ المعيشة في تلك العصور مدنيَّة كانت او دينيَّة في مستعمرة يهوديَّة توطَّنت جزيرة اليفانتين وحصن اسوان:

١ سنة ٤٧١ قونيه (קוניה) بن صدق (צדק) نال من جاره محسيه (מחסיה) ابن يدنيه (ידניה) الرخصة ببناء حائط مشترك بينهما

٢ هذه الكتابة الثانية تاريخها سنة ٤٦٥ قد اثبتنا صورتها في الآرامية والعبرانية ثم عرّبناها وعلّقنا عليها بعض حواش في هذه المقالة فلتراجع

٣ سنة ٤٥٩ مصادقة محسيه المذكور على هبتهِ لختنهِ يزنيَه (יזניה) بن اوريه (אוריה) بقطعة ارض وبيت ابتناهُ لابنتهِ مبطحيه (מבטחיה) امرأة يزنيَه

٤ في ذات السنة وعين النهار اعطى محسيه لابنتهِ حقّ التملُّك على القطعة المذكورة وسلَّمها الصكّ المُثبت لذلك كما ورد في العدد الثاني

٥ سنة ٤٦٦ اعطى محسيه المومأ اليهِ لابنتهِ بيتاً ثانياً تعويضاً لما أدَّت لهُ من الاعانات لمَّا كان في الحصن ويجاور هذا البيت « اجورا يهو » (אגורא יהו)

تدلّ كلمة « اجور » في لغة الترجوم على المذبح. ولعلَّها اتُخذت هنا اشارةً لهيكل إله اسرائيل « يَهُو »

٦ سنة ٤٤٠ اعطى فيا (פיא) المصري وصلاً لمبطحيه ببعض اشياء من فضَّة وبُرّ وثياب ونحاس وحديد وغيرها بعد ان حلفت بالإلهة ساتي ان كل ذلك خاصتها

٧ في السنة ذاتها بعد ان ترمَّلت مبطحيه او طلَّقها بعلها اقترنت برجل مصري يُدعى اسحور (אסחור) وقد تسمَّى فيما بعد باسم يهوديّ وعُرف بناتان

٨ سنة ٤٢١ توفيت مبطحيه ومات ايضاً زوجها الثاني فاعطى ولداهما يزنيه ومحسيه صكًّا بدفع دين كان على ابيهما

٩ سنة ٤١٧ طلب يزنيه ومحسيه من ابن يزنيه زوج والدتهما الاول ونالا منهُ ان يتخلَّى لهما عن حقوقهِ على بيت عمّهِ

١٠ سنة ٤١١ تقاسم يزنيه ومحسيه بالتراضي عبيدَ والدتهما

فيظهر لك مما تقدم ان مدار الكلام على عيال يهوديَّة متوسطة الاحوال كان اعضاؤها يزاولون حرَفاً يصعب الوقوف عليها لما في الجمل المعبّرة عنها من الابهام. وان هذه العيال تشهد تارةً بانها يهوديَّة وتارةً ارامية وكان الامر على سواء لدى الفرس. ولم يكن اليهود يخافون من ذكر إلههم فيدعونهُ « يهو » ويقسمون باسمهِ ويجتمعون في مكان

خاصّ للصلاة وهو « الاجور » الذي مرَّ ذكرهُ لكنهم لا يأنفون من الحلف بآلهة الوثنيين « ساتي » فاصاب والحالة هذه ارميا النبي في توبيخهِ للشعب وزجره لهُ لشركهِ وآثامهِ المتعدّدة (اطلب نبوة ارميا الفصل ٤٤)

نكتفي الآن بهذا التلخيص ونُضرب عمَّا بدا لنا من الملاحظات الانتقاديَّة ولكي نُطلع القارئ على صورة هذه النصوص رأينا ان نرسم لهُ مدرجاً بالنور الشمسي ونترجمهُ وقد آثرنا المدرج الثاني لان يد الدهر لم تعبث بهِ وتاريخهُ سنة ٤٦٥ وهو مخطوط بخط جليّ . فاخذناه عن اصلهِ وصوَّرناهُ بالحرف العبري واصلحنا ما وجدنا فيهِ من الخلل

ثم انَّنا نتَّبع العادة المألوفة ونبدأ بنسخ المدرج سطرًا سطرًا . ولا خفاء ان لغة هذه الكتابات لا تختلف إلَّا يسيرًا عن لغة التوراة وليس بوسعنا الآن ان نذهب الكلام في هذا الامر لئلَّا نخرج عن موضوعنا

السطر الاول : في الثامن عشر من كسلو (כסלו) وهو اليوم السابع من تحوت (תחות) السنة الواحدة والعشرين (لزركسيس) بدء الملك لمَّا.

« الثاني : ارتحششتا الملك جلس على العرش قال درجمن بن حرشين الخورازمي من اترا (אתרא) (القاطن)

« الثالث : في حصن يب (יב) العامل (؟) في فرقة (عساكر) ارتبان لمحسيه بن يدونيه اليهودي الساكن في حصن يب

« الرابع : من فرقة وريزت (ורייזת) : انك حلفتَ لي بيهو الاله في حصن يب انت وامرأتك

« الخامس : وابنك انتم الثلاثة فيما يتعلّق بارضي (التي) بسببها رفعتُ الشكوى عليك الى

« السادس : دميدت (דמידת) والقضاة زملائهِ فحكموا عليك ان تقسم بيهو بخصوص بقعة الارض

« السابع : هذه اعني انها ليست لدرجمن بل لك . وهذه هي حدود القطعة المذكورة

« الثامن : التي بسببها حلفت لي . بيتي انا درجمن واقع على الجهة الشرقيَّة ثم بيت قونيه بن صدق

السطر التاسع: اليهودي من فرقة اتروفدون (אתרופדון) على الجهة الغربية وبيت يزنيه بن اوريه

العاشر: اليهودي من فرقة ورزت في اسفاها وبيت اسفمت (אספמת) بن فطمونيت

الحادي عشر: احد البحريين في مياه الجندل في اعلاها . فحلفتَ لي بيهو وارضيتَ

الثاني عشر: خاطري فيما يتعلّق بهذه الارض فلا نستطيع ان نقيم عليك دعوى او نحاكمك لا انا ولا ابني ولا ابنتي

الثالث عشر: ولا اخي ولا اختي ولا قريب ولا اجنبي في امر هذه الارض (ولا نخاصمك) لا انت ولا ولدك ولا ابنتك ولا اخاً لك ولا اختاً ولا قريباً ولا اجنبياً

الرابع عشر: فعلى من يحاكمك باسمي على هذه البقعة ان يدفع لك عشرين كبشاً (כבש) اعني به عشرين من النقود

الخامس عشر: الملكيَّة بفائدة ضعف د (٦) في العشرة . فهذه الارض هي ملكك الدائم وانت

السادس عشر: لا تُقام عليك دعوى بسببها . كتبَ ايتن (איתן) بن ابه (אבה) السند

السابع عشر: هذا في حصن سون (סון) واملاهُ عليه درجمن . شاهد: هوشع (הושע) بن فطيخنوم (פטחנום) . شاهد:

الثامن عشر: جدول (גדול) بن يجدل (יגדל) . شاهد: جمريه (גמריה) بن اخيو (אחיו) مشلّم (משלם) بن هوشع .

التاسع عشر: سينكسيد (סינכשר) بن نبوسكن . شاهد : هددنوري البابلي .

العشرون شاهد: جدليه بن عنيه . شاهد: اريشا بن اروستمن ؟

هذا نص الكتابة ولا بد لنا ان نعلّق عليه بعض حواشٍ اتماماً للفائدة وايضاحاً لما جاء فيه غامضاً

(السطران الاولان) يرتقي تاريخ البردي الذي ترجمناهُ الى سنة ٤٦٥ قبل المسيح وهي عين السنة التي تبوأ فيها ارتحشتا سدَّة الملك . وهو يُدعى في هذه الكتابة « ارتحشسو » على خلاف صيغة اسمهِ المألوفة في التوراة (ארתחשסתא) وفي الفارسيَّة ارتحشترا . فهي صيغة بابليَّة قد وُجدت ايضاً بمصر في كتابات شتَّى ودرجمن المذكور احد الاجانب ويقال لهُ الخوارزمي . وما يتبع في النصّ مبهم وصعب المنال . ولربما ان كلمة (אתרה) تعني المكان والمقام فتكون الجملة على ما يأتي : درجمن بن خرسين الخوارزمي وموطنهُ الآن في يب . واما يب كما قلنا فهي الاسم القديم لجزيرة اليفانتين

(السطر الثالث) ان الفرق بين الدال والراء في هذه الكتابة يسير ولهذا من المحتمل ان يقرأ (דגל) عوضاً عن (רגל) فيكون معناها حينئذٍ « لواء » العسكر . واعلم انهُ كان في حصني يب واسوان عدد عديد من الفرق وكان اليهود على ما يظهر يتجنَّدون في جيوش الفرس واما القوَّاد والقضاة فكانوا من الاجانب الذين قدموا من بلاد ما بين النهرين وفارس واسماؤهم ارتبان واتروفدن وور يزت تدلّ على عجميتهم

وقد طمعت نفس درجمن بارض ادَّعى احد يهود اليفانتين واسمهُ محسيه انها لهُ . فتقدَّم محسيه وابنهُ وامرأتهُ الى محكمة الفرس وكان يرأسها دميدت وطلب ألَّا تُهضم حقوقهُ على البقعة المذكورة ورفع الشكوى عليهِ . فصدر امر دميدت الى محسيه بان يُثبت بالقسم ان هذه الارض لهُ لا لدرجمن . ثم ذكرت الكتابة حدود الارض وقرَّرت انها ملك محسيه ومن يرثهُ لا يستطيع احد ان ينازعهُ بها دون ان يُغرم بعض الكبوش (١ . ويعقب ذلك اسم كاتب الصك وتواقيع الشهود

(السطران العاشر والحادي عشر) لا مشاحة ان اسفمت بن فطعونيت كان مصري الاصل والدليل على ذلك اسمهُ واسم ابيهِ فانهُ يُدعى (מלח זי מיא קשיא) وبالسريانية ܡܠܚܐ ܕܡܝܐ ܩܫܝܐ اعني بهِ « ملَّاح المياه الصعبة » فكان اذاً يقوم بمساعدة من يرغب بعبور الشلالات وقد ذكر سنحريب وبختنصَّر في كتاباتهما المحلّ ذاتهُ بنفس العبارات

ان احد الشهود المذكورين في السطر السابع عشر يُدعى هوشع وهو ابن

١) كان الكبش نوعاً من النقود المشار اليها بالحرف « د » وهو عبارة عن الدرهم . لكن الجملة بقيت الى الان في طيّ الابهام

فطيخنوم ومن الممكن انهُ كان من عدد المترشحين الى دين اليهود كما كان لسحور الذي تهوَّد فدُعي ناتان

(سطر ١٧-٢١) وقّع الشهود وكلٌّ بيدهِ الصكَّ الموما اليهِ وقد ثبت ذلك من تباين الخطوط. لكنَّهم جميعاً كانوا يحكمون كتابة الارامية ولو اختلفوا ارومةً وعنصراً فبعضهم يهود وبعضهم مصريون او بابليون مثل هددنوري وسينكسيد بن نبوسمسكن او من الفرس كما يدل على ذلك اسم الشاهد الاخير. فمن ثم يتضح ان اللغة الارامية كانت مألوفة الاستعمال اوانئذٍ. ويعلم القرّاء ان ملوك الفرس عوَّلوا رسمياً على هذه اللغة وعلى كتابتها تسهيلاً لتدبير الاقاليم ولم يكن بوسعهم ان يتخذوا طريقةً غير هذه لان لغتهم لم تكن كثيرة الشيوع وزد على ذلك انها اشتُقت من الكتابة المسماريَّة فكانت اذًا صعبة المنال لاسيَّما في السجلات والصكوك والمخابرات التجاريَّة

لا تخلو النصوص المكتشفة حديثاً من بعض كلمات وعبارات غامضة لا يمكن فهمها وشرحها الَّا بكتابات جديدة نسأل الله ان يحظي المسيو كلرمون غانو بالاكتشاف عليها وقد سبق لنا القول آنفاً ان المستشرق الشهير عندما اطلع على المدارج البرديَّة التي نشرها علماء الانكليز وعلى اهميتها وعددها عقد النيَّة ان يباشر بحفريات في اسوان وجزيرة اليفانتين علَّهُ يجد المكان الذي عثر فيهِ الفلاحون على مجموع البابير المتقدم الذكر. وكان ايضاً يملّ النفس بالوقوف على نسخة من التوراة. لانهُ كان ثمَّ هيكل ليهو في وسط المستعمرة اليهوديَّة فلا جرم والحالة هذه ان اليهود كانوا يتداولون كتبهم المقدسة والحق يُقال ان العثور على التوراة او على قسمٍ منها مكتوب على صحائف البردي او رقّ الغزال مما يرتقي عهدهُ الى زركسيس او ارتحششتا او داريوس الثاني سوف يكون من اعظم اكتشافات هذا العصر. وذلك لان اقدم النسخ العبريَّة التي نُقل عنها كتابنا المقدَّس الحالي لا تتجاوز قدماً الجيل السابع بعد المسيح

تقدمت جمعية علماء الكتابات الى المسيو كلرمون غانو مبلغ خمسة آلاف فرنك في فصل الشتاء الماضي ليذهب الى اسوان ويباشر بالحفريات في جزيرة اليفانتين فوجد اكثر من مائة كتابة حجريَّة سينشرها قريباً امَّا نسخة التوراة فلم يكتشف لها على اثر (١

١) ان المسيو روبنسوهن (Rubenshon) الالماني نال ايضاً في الوقت ذاتهِ امتيازًا للبحث عن العاديات في اسوان واليفانتين. لكننا نجهل ما نجم عن حفرياتهِ

وقد وطّد الرجاء العالم المذكور بالرجوع السنة القادمة لاستئناف الحفريات وسنُطلع القرّاء على ما يتوصل اليهِ

المقدسيّ وجغرافيّة سوريّة

في القرن العاشر للميلاد

نظر للاب هنري لامنس مدرّس الجغرافية الشرقيّة في المكتب الشرقيّ

المقدسي من افضل كتبة الجغرافيّة بين قدماء العرب فنتّخذهُ كمثال يوقفنا على ما بلغهُ اولئك الائمّة من الكمال في هذا الفنّ واخصّ ما نطلبهُ منهُ المعلومات التي اثبتها في كتابهِ عن سوريّة وطنهِ كما عرفها في زمانهِ اعني في القرن العاشر للمسيح. وهذا ما حدا بنا الى ارصاد مقالةٍ خاصّة للنظر في تأليفهِ

١ المقدسي وتأليفهُ

ليس المقدسي اوّل من تولّى وصف الشام لكنّهُ يفوق على من تقدّمهُ بوفرة معلوماتهِ وبحسن اسلوبهِ. والحقّ يقال انهُ تحرّى في عملهِ طريقةً نظاميّة تجعل تأليفهُ في مقام رفيع

ولد شمس الدين ابو عبدالله محمّد بن احمد بن ابي بكر البنّاء نحو السنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ م) في القدس الشريف فدُعي لذلك بالمقدسي وهو الاسم الذي ندعوهُ بهِ اختصارًا في ما يأتي. وكان جدّهُ مهندسًا بارعًا في الشام وهو الذي ابتنى ميناء عكا كما افادنا حفيدهُ اذ قال فيهِ (ص ١٦٢ و١٦٣):

«لم تكن (عكا) على هذه الحصانة حتى زارها ابن طيلون (طولون) وقد كان رأى صور ومَنَعتها واستدارة الحائط على ميناها فاحبَّ ان يتّخذ لعكا مثل ذلك الميناء فجمع صنّاع الكورة وعرض عليهم ذلك فقالوا: لا يهتدي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان. ثمّ ذُكر لهُ جدّنا ابو بكر البنّاء وقيل: ان كان عند احد علمُ هذا فعندهُ. فكتب الى صاحبهِ على بيت المقدس ان ينهضهُ اليهِ. فلمّا صار اليهِ وذكر لهُ ذلك قال: هذا امرٌ هيّن عليّ بفِلَق الجمّيز الغليظة. فصفّها على وجه الماء بقدر الحصن البرّي وخيّط بعضها ببعض وجعل لها بابًا من الغرب عظيمًا ثمّ بنى عليها

بالحجارة والشيد وجعل كلّما بنى خمس دوامس ربطها بالمدة غلاظ ليشتدّ البناء . وجُعلت القلّق كلّما ثقلت ترلت حتّى اذا علم انّها قد جلست على الرمل تركها حولا كاملًا حتّى اخذت قرارها ثمّ عاد فبنى من حيث ترك كلّما بلغ البناء الى الحائط القديم داخلهُ فيهِ وخيّطهُ بهِ . ثمّ جعل على الباب قنطرة فالمراكب في كل ليلة تدخل المينا وتجرّ السلسلة مثل صور »

تعاطى المقدسيّ في اوّل امرهِ التجارة وتجشّم لذلك اسفارًا اعدّتهُ للدروس الجغرافيّة . وكان يشعر في قلبهِ ميلًا عظيمًا الى معرفة البلدان ولم يزل يقوى فيهِ ميلهُ الى أن انقطع الى ذلك الفنّ بتامهِ فطاف كل بلاد الاسلام اللهمّ الّا السند والاندلس . ثم باشر نحو السنة ٩٨٥ تصنيف كتابهِ فبأتمهُ كمالهُ بعد ثلاث سنوات . أمّا سنة وفاتهِ فلا تزال مجهولة وكذلك تفاصيل ترجمتهِ لا نعلم منها الّا القليل مما اثبتهُ عن نفسهِ في مطاوي كتابهِ الذي دعاهُ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم

ومن البديهيّ انّ الكاتب أحكم القسم المختصّ ببلاد الشام مسقط رأسهِ فتوسّع فيهِ . لكنّ تأليفهُ كلهُ يستحقّ الثناء قال المستشرق غلدميستر (Gildmeister) « انّ المقدسيّ قد امتاز بين بقيّة ارباب اوصاف البلدان بكثرة ملحوظاتهِ وسعة نظرهِ (١ ». وقال سبرنغر (Sprenger): « ليس من سائح تجوّل في البلاد كما تجوّل المقدسيّ ولا احد لحظ ما لحظهُ او روى معلوماتهِ مثلهُ بنظام وترتيب ». وكذلك العلامة بربيه دي مينار (B. de Meynard) يعدّ تأليفهُ ذا قيمة لا تقدَّر (٢ . وكل هذه الاقوال عين الصواب . أمّا حُسن الاسلوب فلهُ المقام الاوّل فيهِ بين وصفائهِ السابقين والذين اتوا بعدهُ لم يبلغوا شأوهُ بل زادوا تقهقرًا . ومن تصفّح كتاب المقدسيّ استحسن طريقتهُ في الكتابة فانك لا تراهُ يضيف الى عملهِ الاضافات النافلة والاستطرادات الزائدة كما يفعل ابن رُسته وابن الفقيه وكذلك لم يدخل في اوصافهِ تعداد المراحل او مبالغ الخراج على طريقة مملّة شأن ابن خرداذبه في تأليفهِ . هذا فضلًا عن حسن نظرٍ واصالة رأي مع ما يُبدي لوطنهِ من الحبّ الواجب دون ان يبخس حقوق بقيّة البلاد

١) في المجلّة الفلسطينيّة الالمانية (ZDPV, VII, p. 143)

٢) اطلب المجلّة الاسيويّة (JA, 1879 ², 271) وكتاب بروكلمان في آداب العرب (Brockelmann: *Gesch. d. arab. Litter.*, I, 230) ولاسيّما مقدّمة الدكتور دي غويه على القسم الرابع من مجموع جغرافيي العرب

ومما يستحبهُ القارئ فوق ذلك في مطالعة تأليف المقدسي حرصهُ على سياق الاخبار وتنسيق الاوصاف فترى الابواب متواصلة على احسن طريقة واضبط اسلوب على خلاف ما ترى في كُتب من تقدَّمهُ. مثال ذلك انهُ في كلامهِ عن كورة قنَّسرين جعل قصبتها حلب. وقد احسَّ بان القارئ يعترض عليهِ في ذلك فسبق بالردّ على اعتراضهِ بما حرفهُ (ص ١٥٦):

« فان قال قائل. لِمَ جعلتَ قصبة الكورة حلب وهنا مدينة على اسمها. قيل لهُ: قد قلنا انَّ مَثَل القصبات كالقوّاد والمدن كالجند ولا يجوز ان تُجعل حلب على جلالتها وحلول السلطان بها وجميع الدواوين اليها وانطاكية ونفاستها وبالس وعمارتها اجنادًا لمدينة خربة صغيرة. فان قال: هلّا استعملتَ هذا القياس في شيزر فاضفتَ اليها اصطخر ومدنها. قيل: لمّا وجدنا باصطخر مدنًا احدقت بها وتباعدت عنها استحسنًا ما فعلناهُ ثَمَّ والاستحسان في علمنا هذا ربّما غلب القياس

امّا طبعة هذا الكتاب فحسبُنا القول بان الذي تولّى امرها انّما هو احد افاضل المستشرقين العلّامة دي غوي. وكان طبعها اوّلًا سنة ١٨٧٧ ثم نفدت هذه الطبعة بعد مدَّة فاضطرَّ جناب ناشرها الى اعادة طبعها فانجز العمل في السنة المنصرمة. وفي ذلك دليل واضح على اقبال العلماء على هذا الكتاب وقلّما تجد كتابًا علميًا عربيًا يحتاج الى طبعتين. ومن محاسن هذه الطبعة المستحدثة انَّ صاحبها اثبت فيها عدَّة فوائد جديدة استفادها من درسهِ الخاصّ ومن ملحوظات العلماء فجاءت هذه الطبعة الثانية غاية في الحسن سواء كان لضبط المتن (١ او لدقَّة الحواشي التي علّقها في ذيل كل صفحة من الكتاب فيا ليت أدباء الشرق يحذون في طبعهم للتآليف القديمة حذو المستشرقين في طبعاتهم فيخدموا العلم كما فعل ناشر جغرافيَّة المقدسي

ولكن دعنا الآن نواصل بحثنا في التأليف الذي نحن بصددهِ

٢ بلاد الشام على عهد المقدسي

اوّل ما افتتح بهِ المقدسي كتابهُ نظرٌ عموميّ في احوال الشام وهذه المقدَّمة حسنة اجمالًا لولا لانَّ المؤلف افقدها شيئًا من فوائدها بزخرف سجعها والاولى بمثل هذه المقدَّمات أن تُكتَب بسذاجة وكلام بعيد عن كلّ تصنُّع لئلا يحيد الفكر عن الجوهر

١) قد ضبط جناب الدكتور اسم سَلَمِيَّة بلدة شرقيّ حمص بتشديد الياء المثنّاة وعندنا انَّ الصواب كتابتها بتخفيف الياء كما هو شائع في تلك الجهة

فينصرف الى الاعراض لاسيما اذا اتسع الكتبة في السجع وتجاوزوا الحدود كما فعل ابن جُبَير. فدونك ما كتب المقدسي في وصف الشام (ص ١٥١):

«(اقليم الشام) جليل الشأن دار النبيين. ومركز الصالحين. ومعدن البدلاء. ومطلب الفضلاء. بهِ القبلة الاولى. وموضع الحشر والمسرى. والارض المقدسة والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة ومهاجر ابراهيم وقبره وديار ايّوب وبئره ومحراب داؤد وبابهُ وعجائب سليمان ومدنهُ وتربة اسحاق وامّه ومولد المسيح ومهدهُ وقرية طالوت ونهرهُ ومقتل جالوت وحصنهُ وجبُّ ارميا وحبسهُ ومسجد اوريّا وبيتهُ وقبّة محمّد وبابهُ وصخرة موسى وربوة عيسى ومحراب زكريّا ومعرك يحيى ومشاهد الانبياء وقرى ايّوب ومنازل يعقوب والمسجد الاقصى وجبل زيتا ومدينة عكا ومشهد صدّيقا وقبر موسى ومضجع ابراهيم ومقبرتهُ ومدينة عسقلان وعين سلوان. وموضع لقمان ووادي كنعان. ومدائن لوط وموضع الجنان. . . ثم بهِ دمشق جنّة الدنيا. وصُغَر البصرة الصغرى. والرملة البهيّة وخبزها الحوّارى وايليا الفاضلة بلا لأوى وحمص المعروفة بالرخص وطيب الهواء: وجبل بصرى وكورهُ فلا تُنسى وطبريّة الجليلة بالدخل والقرى ثم البحر يمدُّ على طرفيه فالحمولات فيهِ اليهِ ابداً وبحر الصين متّصل بطرفهِ الاقصى لهُ سهل وجبل واغوار واشياء والبادية على تخومهِ كالرقاق منهُ الى تيماء. وبهِ معادن الرخام وعقاقير كلّ دواء. ويسار وتجار ولباقة وفقهاء وكتّاب وصنّاع واطبّاء»

فترى من هذا الوصف انَّ بلاد الشام كانت وقتئذٍ غنيّةً بمحصولاتها مُثريةً بتجارتها تزينها المدن العامرة والدساكر الخصبة لم تزل بحسن موقعها وعظم شأنها على ما كانت عليهِ سابقاً (اطلب المشرق ص ١٠٩) فتحفظ مقامها الخطير بين الاقطار. وكانت الشام مشحونة بالديار الواسعة والمنازل العامرة حتى يكاد الناظر يسهو عنها لكثرتها. قال المقدسي (ص ١٥٥ راجع ايضاً ١٧٦):

«وفي هذا الاقليم قرًى اجلّ واكبر من اكثر مدن الجزيرة (١ مثل داريّا وبيت لهيا وكفر سلّام وكفر سابا غير انّها على رسوم القرى معدودة فيها وقد قلنا انَّ عندنا موضوع على التعارُف»

وكان صاحب هذه الاسطر قد ألحق بوصفهِ للشام خارطةً كما فعل بسائر الاقاليم الّا انَّ هذه الخارطة لم تُنشر بالطبع فلا يسعنا الحكم عنها لنوجّه اليه الثناء او اللوم كفعلنا بالخوارط التي رسمها كتبة العرب

وبعد هذه المقدّمات ترى المقدسيَّ يستقري كوَر الشام واحدةً واحدة مباشرة من

١) يريد جزيرة العرب كما ارتأى بصواب المسيو دي غوي

جهة الشمال وهو يحصيها ستة: قنسرين ثم حمص ثم دمشق ثم الاردن ثم فلسطين ثم الشراة. وهذه الكور توافق الخمسة الأجناد التي قُسمت اليها بلاد الشام منذ اوّل الفتح الاسلامي. والكورة الاولى اي قنسرين تنطبق مع ولاية حلب الحاليّة تقريباً. لكنّنا لا نفهم كيف استطاع المقدسيّ (ص ١٥٤) أن يُدخل فيها جوسيَّة الواقعة على مسافة ستّ ساعات جنوبيّ شرقيّ حمص. ولعلّ النسّاخ تصرّفوا بتقديم بعض الاسطر او تأخيرها فشوّشوا الترتيب. امّا كورة الاردن فكانت تشمل في جملة مدنها طبريّة وقدس وصور وعكا واللجّون وكابل وبيسان واذرعات وذلك ما يوافق من انحائنا الحاليّة كل متصرفيّة عكّا وقسماً من متصرفيّة نابلس وقائمقاميّة صور وبعض متصرفيّة حوران. امّا كورة الشراة فانّ المقدسيّ (ص ١٥٥) قد جعل « قصبتها صُغَر ومدنها مآب ومعان وتبوك وأذرُح ووَيلة ومَديَن ». وصُغَر هذه هي المذكورة في التوراة كان موقعها جنوبيّ بحيرة لوط وقد استولى عليها الخراب منذ زمن طويل وسنعود الى ذكرها. هذا محصّل تقسيم كوَر الشام كما كانت في القرن العاشر

وها نحن نستقري كلّ كورة لنرى ما يقول المقدسيّ فيها. قال عن حلب (ص ١٥٥):

« وامّا حلب فبلد نفيس خفيف حصين وفي اهلها ظرف ولهم يسار وعقول مبنيّ بالحجارة عامر. في وسط البلد قلعة حصينة واسعة فيها ماء وخزائن السلطان. والجامع في البلد. شربهم من نهر قُوَيق يدخل الى البلد الى دار سيف الدولة في شباك حديد والقصبة ليست بكبيرة الّا انّ بها مستقرّ السلطان لها سبعة ابواب باب حمص باب الرقّة باب قنّسرين باب اليهود باب العراق باب دار البطّيخ باب انطاكية وباب الاربعين مسدود »

وكانت انطاكية في ايّام المقدسيّ قد انحطّت عن رتبتها السابقة بعد تقدّمها على كل مدن الشام. ولذلك يكتفي الكاتب بذكرها دون وصفها. وعلى خلاف ذلك حمص فانها كانت نالت نصيباً وافياً من الفخر قال المقدسيّ في تعريفها (ص ١٥٦):

« حمص ليس بالشام بلد اكبر منها وفيها قلعة متعالية عن البلد تُرى من خارج اكثر شربهم من ماء المطر ولهم ايضاً نهر ولما فتحها المسلمون عمدوا الى الكنيسة فجعلوا نصفها جامعاً. عنده بالسوق قبّة على راسها شبه رجل من نحاس واقف على سمكة تديرها الارياح الاربع وفيه اقاويل لا تصحّ والبلد شديد الاختلال متداعٍ الى الخراب »

ويلوح من قول المقدسي (ص ١٥٦) ان تدمر كانت بعد في عهده على حالة من العمران « قريبة من البادية رحبة طيبة ». وهاك وصف دمشق قال (ص ١٥٦ و١٥٧):

« دمشق هي مصر (١ الشام ودار الملك ايام بني امية وثم قصورهم وآثارهم بنيانهم خشب وطين وعليها حصن أحدث وانا به من طين اكثر اسواقها مغطاة. ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن وهو بلد قد خرقته الانهار. واحدقت به الاشجار. وكثرت به الثمار. مع رخص اسعار. وثلج واضداد لا ترى احسن من حماماتها ولا اعجب من فوّاراتها ولا احزم من اهلها. الذي عرفته من دروبها باب الجابية باب الصغير باب الكبير باب الشرقي باب توما باب النهر باب المحاملين وهي طيبة جدًا. غير انَّ في هوائها يبوسة واهلها غاغة وغمارها تفهة ولحومها عاسية ومنازلها ضيّقة وازقّتها غامّة واخبارها رديّة والمعايش بها ضيّقة تكون نحو نصف فرسخ في مثله في مستوى »

ثم يُردف المقدسي كلامهُ بوصف الجامع الاموي الشهير المعدود كاحدى عجائب دمشق. ووصفهُ اقدم ما ورد الينا في ذلك البناء العظيم ولولا طولهُ لاثبتناهُ هنا وهو يعرّفنا بمحاسن ذلك العمل الجليل ورونقهِ البهي قبل أن يُصاب ثلاثًا بمصاب الحريق ونحن نكتفي بذكر رواية نقلها المؤلف عن نفسهِ حيث قال (ص ١٥٩):

« قلتُ يومًا لعمّي: يا عمّ لم يحسن الوليد حيث انفق اموال المسلمين على جامع دمشق ولو اصرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورمّ الحصون لكان أصوب وافضل. قال: لا تغفل بنيّ انَّ الوليد وُفّق وكُشف لهُ عن امرٍ جليل وذلك انهُ رأى الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بيعًا حسنة قد أفتن زخارفها وانتشر ذكرها كالقمامة وبيعة لُدّ والرها فاتّخذ للمسلمين مسجدًا اشغلهم به عنهنَّ وجعلهُ احد عجائب الدنيا ألا ترى انَّ عبد الملك لما رأى عظم قبّة القمامة وهيئتها خشي ان تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبّة على ما ترى »

وهو قول جليل يدلُّ على ما بلغهُ فنّ البناء والهندسة في بلاد الشام بين اهل الذمة

اما المدن الساحليّة فانها على ما يظهر كانت قليلة الشان بالنسبة الى حمص ودمشق فانَّ المقدسي لا يكاد يزيد على ذكر اسمائها حيث قال (ص ١٦٠): « صيداء وبيروت مدينتان على الساحل حصينتان وكذلك طرابلس الّا انها اجلّ ». بخلاف بانياس فانها

(١) يريد بالمصر هنا المدينة الكبيرة والحاضرة. كما يقال من الكوفة والبصرة انهما مصرا العراق او العراقان»

.كانت في ذلك العهد مدينة عامرة واسعة الثروة بما يأتيها من غلال كورة الحولة التي يدعوها المؤلف معدن الاقطان. قال (ص ١٦٠):

« ومدينة بانياس على طرف الحولة وحدّ الجبل ارخى وارفق من دمشق واليها انتقل اكثر اهل الثغور لمّا أُخذت طرسوس وزادوا فيها وهي كل يوم في زيادة لهم ضر شديد البرودة يخرج من تحت جبل الثلج ويفيض وسط المدينة وهي خزانة دمشق رفقة باعمالها بين رساتيق جليلة غير ان ماءها رديّ »

ومن المدن التي افاض المؤلف في وصفها طبريّة وكانت اذ ذاك اعظم خطرًا منها اليوم مع انطباق وصفها اجمالًا مع وضعها الحاليّ. قال (ص ١٦١):

« طبريّة قصبة الاردن وبلد وادي كنعان موضوعة بين الجبل والبحيرة وهي ضيّقة كربة في الصيف مؤذية طولها نحو من فرسخ بلا عرض وسوقها من الدرب الى الدرب والمقابر على الجبل. بها ثماني حمّامات بلا وقيد ومياض عدّة حارّة الماء والجامع في السوق كبير حسن قد فُرش ارضهُ بالحصى على اساطين حجارة موصولة. ويقال « اهل طبريّة شهرين يرقصون وشهرين يتمقمون وشهرين يثاقفون وشهرين عُراة وشهرين يزمّرون وشهرين يخوضون » . يعني يرقصون من كثرة البراغيث ويلوكون النبق ويطردون الزنابير عن اللحم والفواكه بالمذابّ وعراة من شدّة الحرّ ويمصّون قصب السكر ويخوضون الوحل . واسفل البحيرة جسر عظيم عليه طريق دمشق وشربهم منها عليها بما يدور قرى نخيل والسفن فيها تذهب وتجيء وماء الحمامات والدواميس اليها لا يستطيبها الغرباء. كثيرة الاسماك خفيفة الماء والجبل مطلّ على البلد شاهق »

والجسر الذي يذكرهُ الكاتب ليس هو على ما نظن جسر المجامع الذي يُرى اليوم جنوبًا بل يريد جسرًا آخر خربًا تُرى بقاياهُ عند مخرج الاردن من بحيرة طبريّة. وكان اكبر من جسر المجامع واقرب من طبريّة . ويتّضح من وصفهِ ايضًا ان الطريق من دمشق الى طبريّة كانت تقطع ذلك الجسر مارّة بأفيق سواء. وبينهما بريد واحد (ص ١٩٠) وهكذا كانت تسهل المواصلات مع طبريّة دون عطفة جسر المجامع . وهذا ما يحملنا على مخالفة رأي المسيو دي غوي الذي ارتأى انّ الجسر المذكور هو جسر المجامع (ص ١٦١ في الحاشية h). ويؤخذ ايضًا من كلام المقدسي انّ ملاحة بحيرة طبريّة كانت ذات بال وانّ الكورة كانت في نموّ وعمران. امّا اليوم فلا تكاد ترى على بحيرة طبريّة سوى قوارب قليلة. والامل معقود بان سكّة الحديد الحميديّة سوف تعيد قريبًا الى هذه المحالّ حركتها السابقة وتقدُّمها

ثم اتبع المؤلف وصفهُ بذكر بلاد فلسطين وقد قدَّم عليهِ تعريف عكَّا وميناها الخطير المشابه بحسنهِ مينا صور الذي وصفهُ بما يلي (ص ١٦٣) :

« وصور مدينة حصينة على البحر بل فيهِ يُدْخَل اليهـا من باب واحد على جسر واحد قد احاط البحر بها ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا ارض تدخل فيهِ المراكب كل ليلة ثم تجرّ السلسلة التي ذكرها محمَّد بن الحسن في كتاب الاكراه ولهم ماء يدخل في قناة ٠ملَّقـة وهي مدينة جايلة نفيسة بها صنائع ولهم خصائص وبين عكا وصور شبه خليج ولذلك يقال « عكا حذاء صور الّا انك تدور » يعني حول الماء »

ولم يكن المؤلف لينسى وطنهُ بيت المقدس فافرد لهُ وصفاً مطوَّلا يستشفُّ من ورائهِ حبّ الكاتب لمسقط رأسهِ . واورشليم كانت اذ ذاك كما هي اليوم مدينة معتبرة ولذلك احببنا ان ننقل قسماً من كلامهِ . وليس شاهد ادلّ على فضل المقدسيّ من هذه المنقولات التي نثبتها في كلامنا مع حُسن بيانها لاحوال الشام في عصره . قال بعد ذكره للرملة قصبة بلاد فلسطين (١٦٥—١٦٧) :

« بيت المقدس ليس في مدائن الكُوَر اكبر منها وقصبات كثيرة اصغر منها كاصطخر وقاين والفرما لا شديدة البرد وليس بها حرّ وقلّ ما يقع بها ثلج . وسألني القاضي ابو القسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها فقلتُ : سجسجٌ لا حرّ ولا برد شديد . قال : هذا صفة الجنّة . بنيانهم حجر لا ترى احسن منهُ ولا اتقن من بنائها ولا اعفّ من اهلها ولا اطيب من العيش بها ولا انظف من اسواقها ولا اكبر من مسجدها ولا اكثر من مشاهدها . عنبها خطير . وليس لمشتّها نظير . وفيها كلّ حاذق وطبيب . واليها قلبُ كل لبيب . ولا تخلو كل يوم من غريب . وكنت يوماً في مجلس القاضي المختار ابي يحيى ابن جرام بالبصرة فجرى ذكر مصر الى ان سئلتُ : اي بلدٍ اجلّ قلت : بلدنا . قيل : فاتَّها اطيب . قلت : بلدنا . قيل : فاتَّها افضل . قلت : بلدنا . قيل : فاتَّها احسن . قلت : بلدنا . قيل : فاتَّها اكثر خيرات . قلت : بلدنا . قيل . فاتَّهـا اكبر . قلت بلدنا . فتعجب اهل المجلس من ذلك وقيل : انت رجل محصّل وقد ادّعيت ما لا يُقبَـل منك وما مثلك الّا كصاحب الناقة مع الحجّاج . قلتُ : امّا قولي « اجلّ » فلانها بلدة جمعت الدنيا والآخرة فمن كان من ابناء الدنيا واراد الآخرة وجد سوقها . ومن كان من ابناء الآخرة فدعتهُ نفسهُ الى نعمة الدنيا وجدها . وامّا طيب الهواء فانهُ لا سمّ لبردهـا ولا اذى لحرّها . وامّا الحُسْن فلا ترى احسن من بنائها ولا انظف منها ولا انزه من مسجدها . اما كثرة الخيرات فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الاغوار والسهـل والجبال والاشياء المتضادّة كالاترجّ واللوز والرطب والجوز والتين والموز . وامّا الفضل فلانَّها عرصة القيامة ومنها المحشر واليها المنشر . . فتحوي الفضل كلهُ . واما الكبر فالخلائق كلّهم يُحشَرون اليها فايّ ارضٍ اوسع منها . فاستحسنوا ذلك واقرُّوا بهِ »

ويلي فلسطين ذكر الكورة السادسة وهي كورة الشراة دُعيت بذلك باسم جبل الشراة الذي يمرُّ بها. وقد سبق لنا في احد اعداد المشرق الاخيرة (ص ٥٧٧) ما اكتشفهُ في تلك الجهات الدكتور لويس موسيل. وها نحن نثبت هنا نتفاً مما جاء في تأليف المقدسيّ عن بعض بلدانها. قال في وصف صُغَر التي اشرنا آنفًا الى موقعها جنوبي بحيرة لوط في موقع تنيف حرارتهُ على لظى كل البلاد (ص ١٧٨):

« صُغَر اهل الكورتين يسمُّونها صقر. وكتب مقدسي الى اهلهِ: من صقر السفلى الى الفردوس الاعلى. وذلك انهُ بلد قاتل الغرباء رديء الماء ومن ابطأ عليهِ ملك الموت فليرحل اليها. ولا اعرف في الاسلام لها نظيرًا في هذا الباب ولقد رأينا بلدانًا وبيَّة ولكن ليس كهذه اهلها سودان غلاظ وماؤها حميم وكانها جحيم الّا البصرة الصغرى والمتجر المُربح وهي على البحيرة المقلوبة وبقيَّة مدائن لوط وانَّما نجت لانَّ اهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة والجبال منها قريبة »

ودونك ما كتب عن مآب (ص ١٧٧):

« مآب في الجبل كثيرة القرى واللوز والاعناب قريبة من البادية ومؤتةُ من قراها وثَمَّ قبر جعفر الطيَّار »

ومؤتة المذكورة هنا موقعها معروف على بُعد نحو اربع ساعات جنوبيَّ الكرك. وهذا دليل على موقع مآب لكنهُ غير كافٍ للحكم البات في ذلك كما سبق لنا القول في المشرق (ص ٥٨٠). امَّا الكرك فانَّ المقدسيّ لم يروِ اسمها ولا دفعة واحدة بخلاف مآب التي يكرّر اسمها ويعدّها كمكان ذي شأن. وما ادرانا انَّ الكرك نفسها كانت تسمَّى مآب كما يُشعر بذلك اسمها اليوناني القديم فان البوزنطيين كانوا يسمُّونها كركموبا (Χαράχμωβα)

وليست مآب وحدها التي باد اثرها في تلك الناحية التي كانت بعدُ عامرةً في أيام المقدسيّ. ومما ذكرهُ أذرُح الشهيرة بمعسكرها الرومانيّ وفيها جرت حكومة الحكَمَين من اعظم حوادث الدولة الأمويَّة (١. وبقيت أذرح في مقامها الصالح الى القرن الثاني عشر وهي اليوم خراب وقد زرنا بقاياها في شهر آب من السنة ١٩٠٥ عند رجوعنا من عيون موسى ومدينة بترا التي كان الخراب استولى عليها قبل عهد المؤلف بزمن طويل فلم يتعرَّض لذكرها

١) راجع مقالاتنا في اخبار الخليفة معاوية (Etudes sur le Calife Moa'wia)

*

قد تبعنا المقدسيّ في تعريفه لاعظم مدن الشام الباقية في زمنه طبقاً لاوصافها الطبيعيّة وتقاسيمها النظاميّة. ولا نشكّ انّ القارئ قدّر الكاتب قدره بما نقلنا من نصوصه المتعدّدة. وهي كما ترى كافية لتجعل لهُ مقاماً ممتازاً بين ارباب رسوم البلدان. الّا انّ للمقدسيّ فضلاً آخر بما الحقهُ بهذا القسم وهو فصلٌ علميّ دعاهُ « بجمل شؤون هذا الاقليم » واودعهُ عدّة ملحوظات لتعريف جغرافيّة الشام الطبيعيّة والاقتصاديّة والنسبيّة وفي هذا الفصل ايضاً معلومات اخرى في العادات والنقود والاوزان والمكاييل ومال الخراج على مقتضى عادة كل كورة. وعندنا انّ المؤلف يظهر في هذا الفصل من المزايا الفنيّة وحسن النظر الجغرافيّ الذي يرقّي مقامهُ بين الكتبة ولهُ من الملحوظات ما لو كُتب في زماننا لنال بسببهِ الكاتب ثناء. وهو القسم الذي لاجلهِ يطرئ المستشرقون عمل المقدسيّ ويعظمونهُ (١. فمن ذلك ما روينا عنهُ في تقاسيم بلاد الشام ما يشهد لهُ بثقوب العقل ودقّة النظر (٢

والكاتب يفتتح كلامهُ بوصف احوال الجوّ في بلاد الشام كما كان حقيقاً بهِ قال (ص ١٧٩) :

« هو اقليم متوسّط الهواء الّا وسطهُ من الشراة الى الحولة فانهُ بلد الحرّ والنيل والموز والنخيل وقال لي يوماً غسّان الحكيم ونحن باريحاء : ترى هذا الوادي . قلتُ : بلى . قال : هو يمتدّ الى الحجاز ثم يخرج الى اليمامة ثم الى عُمان وهجَر ثم الى البصرة ثم الى بغداد ثم يصعد الى ميسرة الموصل الى الرقّة وهو وادي الحرّ والنخل واشدّ هذا الاقليم برداً بعلبكّ وما حولها. ومن امثالهم قيل للبرد : اين نطلبك . قال : بالبلقاء . قال : فان لم نجدك . قال : بعلبكّ بيتي : وهو اقليم مبارك بلد الرخص والفواكه والصالحين . وكلّما علا منهُ نحو الروم كان اكثر انهارًا وثمارًا وابرد هواء وما سفل منهُ فانهُ افضل واطيب والذّ ثمارًا واكثر نخيلًا ليس فيهِ نهرٌ يسافر فيهِ »

وهذا القول الاخير غاية في الصواب فان المقدسيّ لم يكن ليصادق على مذهب

١) اطلب تاريخ الاداب الشرقية لفون كريمر (Von Kremer: *Culturgeschichte* II, 429-433)

٢) وقد نقل مع هذا روايات ضعيفة ومزاعم غريبة نجدها في غيره من الكتبة كابن الفقيه ومعظم عدد الجغرافيين من ذلك قولهُ (ص ١٢٤) : سُئل ابن العبّاس عن الجزر والمدّ قال : ملاك موكّل بقاموس البحر اذا وضع رجلهُ فاض فاذا رفع رجلهُ غاض الماء.

اسطرابون ومن ارتأى رأيهُ بانَّ العاصي يمكن ركوبهُ على الاوَّل من انطاكية. وهو زعم لا صحَّة لهُ حتى مع حصر الكلام وتخصيصهِ بهذا القسم الصغير فانَّنا قد تحقَّقنا بنفسنا الامر اذ سرنا في وادي العاصي من انطاكية فوجدناهُ لا يصلح لمرور القوارب

ومن الظواهر الجويَّة التي ذكرها المقدسيّ الندى في انحاء الشام وخصوصاً في بعض جهات فلسطين فقال (ص١٨٦): «ينزل على فلسطين في كلّ ليلة الندى في الصيف اذا هبَّت الجنوب حتى يجري منهُ مزاريب المسجد الاقصى». وممَّا رأيناه بالعيان انَّنا بتنا في دنبان بين الكرك ومادبا في شهر آب سنة ١٩٠٥ تحت ظل السماء فلمَّا قمنا صباحاً شعرنا بالندى قد بلَّل اغطيتنا حتى امكنًا عصرها لو شئنا. ومثل هذا الندى يسقط في الناصرة من عمل الجليل وفي بزيزا في ناحية الكورة (لبنان). ووفرة الندى كما هو معلوم من البركات التي يستدرُّها الناس من السماء ويعد بها الكتاب الكريم كالغيث والمطر

وقد اعقب المقدسيّ ذكر الظواهر الجويَّة بوصف التجارات اي الغلات الصادرة من الشام. وفي تعدادهِ دليل واضح على تقدُّم التجارة والصناعة في ذلك العهد كما يشهد على كثرة تلك الصادرات وغناها (١. وها نحن نورد كلامهُ لفائدتهِ (ص ١٨٠—١٨١):

«والتجارات بهِ (اي الشام) مفيدة يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط. ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني والدوريّ غاية والتفَّاح وقضم قريش الذي لا نظير لهُ والمرايا وقدور القناديل والإبَر. ومن اريحا نيل غاية. ومن صُغَر وبيسان النيل والتُمور. ومن عمَّان الحبوب والحرفان والعسل. ومن طبريَّة شقاق المطارح والكاغد وبزّ. ومن قدس الثياب المنيَّرة والبلعسيَّة والحبال. ومن صور السكَّر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات. ومن مآب قلوب اللوز. ومن بيسان الرزّ. ومن دمشق المصور والبلعيسيّ وديباج ودهن بنفسج دون والصفريَّات والكاغد والجوز والقطين والزبيب. ومن حلب القطن والثياب والاشنان والمغرة. ومن بعلبك الملابن. ولا نظير لقطين وزيت الانفاق وحوَّارى وميازر الرملة ولا لمنقَّة وقضم قريش وعينونيّ ودوريّ وترياق وترذوغ وسُبَح بيت المقدس. واعلم انهُ قد اجتمع بكورة فلسطين اربعة وثلاثون شيئاً لا يجتمع في غيرها. فالسبع الاولى لا توجد الَّا بها والسبع الثانية غريبة في غيرها والاثنان والعشرون لا تجتمع الَّا بها وقد يجتمع اكثرها في غيرها مثل: قضم قريش والمنقَّة والعينونيّ والدوريّ واجاص الكافوريّ وتين السباعيّ والدمشقيّ والقلقاس والجمَّيز والخرنوب والكُوب والعنَّاب وقصب السكَّر والتفاح الشاميّ

١) راجع في المشرق (٩: ٩١٦) مقالتنا في تجارة سواحل سوريَّة

والرُّطَب والزيتون والاترجّ والنيل والراسن والنارنج واللُّفّاح والنبق والجوز واللوز والمليون والموز والساق والكرنب والكمأة والترمس والطريّ والثلج ولبن الجواميس والشهد وعنب العاصي والتين السريّ »

وكذلك عدَّد المعادن الشاميَّة وتعداده مهمٌّ لشؤون الصناعة في زمانهِ . قال (ص ١٨٤):

« بهِ (اي إقليم الشام) معادن حديد في جبال بيروت وبحلب مغرة جيّدة وبعمّان دونها وبهِ جبال حُمَر يسمّى ترابها الصمغة وهو تراب رخو وجبال بيض تسمّى الحوّارة فيه ادنى صلابة يبيّض بهِ السقوف ويطيّن بهِ السطوح وبفلسطين مقاطع حجارة بيض ومعدن للرخام ببيت جبريل وبالاغوار معادن كبريت وغيره . ويرتفع من البحيرة المقلوبة ملح مثور وخير السل ما رعى السعتر بايليا وجبل عاملة واجود المُري ما عُمل باريحاء »

وهذا التعداد يدلُّ كما ترى على فقر بلاد الشام بالمعادن كما اشرنا اليهِ غير مرَّة (١ وللمقدسيّ اسطر قليلة كتبها في مجاري المياه في بلاد الشام تفيد معرفتها محبي الاسفار قال (ص ١٨٤):

« ومياه هذا الاقليم جيّدة الّا ماء بانياس فانهُ يُطلق وماء صور يعصر وماء بيسان ثقيل وماء الرملة مريّ وماء نابلس خشن وفي ماء دمشق وايليا ادنى خشونة وفي الهواء ادنى يبوسة »

ولم ينسَ المؤلف عن ذكر حمَّامات طبريَّة المعدنيَّة وحمَّامات الحمَّة قال (ص ١٨٥):

« وبطبريَّة عين تغلي تعمّ اكثر حمَّامات البلد وقد شُقَّ الى كل حمَّام منها نهر فبخارهُ يحمّي البيوت فلا يحتاج الى وقيد وفي البيت الاول ماء بارد يمزج مقدار ما يتطهّرون بهِ ومطاهرهم من ذلك الماء وفي هذه الكورة ماء مسخّن يسمّى الحمّة حارّ من اغتسل فيهِ ثلاثة ايّام ثم اغتسل في ماء آخر بارد وبهِ جرَب او قروح او ناسور او اي علّة تكون برأ باذن الله »

ومن غريب ما رواهُ (ص ١٨٤) في مجاري الانهار قولهُ عن بردَى عند خروجهِ من دمشق فزعم « انهُ ينقسم قسمين بعض يتبحّر نحو البادية وبعض ينحدر فيلقى نهر الاردن » وبديهيّ انَّ نهر بردى ليس هو مطلقًا من سواعد الاردنّ . ومن مزاعمهِ ايضًا (ص ١٨٤) انَّ في بحيرة لوط جبالًا . وهو رأي تفرَّد بهِ المقدسيّ ولا اصل لهُ وكذلك يسمّي بحر القلزم « بحر الصين » ويطلق الاسم عينهُ على خليج العجم . وفي قولهِ دليل على اتساع تجارة الصين في زمانهِ وشيوعها في مدن بحر القلزم الساحليَّة . امَّا الجبال فقد

١) اطلب في كتابنا تسريح الابصار (٢: ٢٠٧) مقالتنا في معادن لبنان

وصفها المقدسي وصفاً خفيفاً غير وافٍ بالمرام . ومما قال في لبنان (ص ١٨٨) انهُ كثير الاشجار والثمار المباحة ثم ذكر عبّاده . ويلوح من قوله فيه انَّ جنوب هذا الجبل لم يكن مأهولاً على عهده

فيرى القرّاء من هذه التفاصيل سبب اعجاب المستشرقين بتأليف المقدسي فيا ليته كان وجد له اخلافاً مثلهُ ذوي عقل ثاقب يفقهون الابحاث الجغرافية فكان هذا العلم اصاب ترقياً عظيماً الّا انَّ اغلب الكتبة الذين جاؤوا بعده كانوا دونهُ اللهم الّا الشريف الادريسي

ومما استفادهُ القارئ ايضاً من هـذا البحث كما نظنّ انهُ يرى ما طرأ على بلاد الشام من التقلّبات واختلاف الاحوال في اطوار التاريخ فمنها ما يزيد وينمو ومنها ما ينقص ويتقهقر على حسب كوارث الدهر . وهذا يلوح من درس كل الكتبة الجغرافيين من العرب فانهم وان لم يبلغوا شأو المقدسي الّا انهم تركوا لنا معلومات ثمينة تؤدّي بنا الى معرفة بلادنا في قرون شتى مع ما جرى فيها من الماجريات في نظامها وتجارتها وبقيّة امورها مما يستفيد منهُ المؤرخ لاستطلاع احوال البلاد وادراك الحوادث الجارية فيها جيلاً بعد آخر

سيرة الحبر الطيّب الذكر

عبدالله قراعلي الماروني الحلبي

للقس توما البودي نشرها بالطبع لاوّل مرّة وعلّق حواشيها الاب انطون ربّاط اليسوعي (تابع)

ولنرجع الى سيرته لئلا اعيد الماضي فاقول : ان صلاته ونسكه وسهره ورشده للغير وطول اناته وتواضع اللبّ مع هذيذه كان دائماً يزيد ولا ينقص ومن حيث قمع الجسم بلغ الى هذا الحدّ من الضعف حتى انهُ اراد ان ينهض بين يديه الاثنتين مقدار ثلاثة ارطال فما كان يقدر

ووقتئذٍ كان البطريرك يعقوب عواد وكان محبّاً للرهبنة ولعبدالله بالاكثر (١).

١) لهذه الشهادة اهمية تاريخية لانها تخالف ما اعتاد المؤرخون تكرارهُ (اطلب سلسلة البطاركة ص ٤٦ و١٨٨ ومختصر تاريخ لبنان المخطوط لانطونيوس البيتلوني وغيرهما)

فحدث ان واحد من الايهات والظاهر انَّ غيرتهُ على عبدالله حملتهُ على ذلك لئلا تعدمهُ الرهبنة من زود ضعفه فتكلم مع البعض واظهر الغيرة فاستصوبها الكثيرون وكتبوا عرضحال للسيد البطريرك ليلزم عبدالله ان لا يصوم يومين. وكذلك صار ومن يريد كيف ظهرت اخيرًا النوايا فعليهِ بقراءة التواريخ. فاطاع عبدالله امر البطريرك وابتدأ بتقشف صارم جدًا بغير نوع بحيث لو يصوم لكان اخير فندم الذين قدموا العرضحال

امَّا اعتباره عند الغُرب فكان عظيمًا لانهم وجدوهُ هكذا رجل صالح محب الحق مبغض الكذب وكانوا يكنونه بالمصري لان جوابه كان سريع (١ وكان مصدَّقًا عند الجميع ومهابًا منهم وما لي اقول مهاب عند البشر بل عند الشياطين ايضًا كما يبان من هذا الحادث الذي اصفه:

اتفق مرة وهو بدير قزحيا أن جاؤوا بمجنون دخلهُ روح سوء الى الدير المذكور (٢ والمجنون كان نصرانيًا من بلاد الدروز وكانوا يقيدونه من نحو خمسة عشر رجلًا لانهُ كان ذا قوَّة وجهاد عظيم فوضعهُ الرهبان في الجنزير في مغارة المجانين فدخل يومًا ما الاخ سليمان شنتيري (٣ الى المغارة ليرى المجنون وكنت انا معهُ واذ شاهد المجنون الاخ سليمان وشاهدني بدأ يتمرمر ويتحرَّق باسنانه نحونا ولاسيما نحو الاخ سليمان الذي كان بعد حدثًا في العمر ويقول لهُ: « اه منك يا حنك الرخو اخرج برًّا هذه الغيضة حتى اعلمك ». وكان قصده بالغيضة الرهبنة. اجابه الاخ المذكور انا بنعمة سيدي يسوع المسيح لا اخاف منك يا ملعون لانهُ هو يقويني عليك. اجابه المجنون المتشيطن وهو ممزّق بالغيظ وتغرقط الاسنان: « ادعُ للذي عمال يتمشَّى على السطح فان راح عنكم » افرجكم. وكان وقتها عبدالله يتمشى على السطح فكأنَّ اللعين ما كان يجسر على الدنو منهم هيبةً من عبدالله الذي كان بينهم

اما اموره السريَّة المعروفة عند اعيان الرهبنة فقد اعترفت من قبل المواهب التي

---

١) يوصف المصري بسرعة الجواب ومنهُ المثل عند العامة: « المصري جوابه في فمه »

٢) ان هذا الدير مشهور بشفاء المجانين المتشيطنين وبغير اشياء كما ياتي بيان ذلك في تواريخ الرهبنة (حاشية للمؤلف)

٣) لبس الاسكيم في ١٥ اب ١٧٠١ من يد القس عبد الله قراعلي في دير مار اليشع وتوفاه الله في ٢٧ نيسان ١٧٠٧ (نقلًا عن سجلات الرهبنة)

كانت لهُ . يقول القديس افرام : « ان الانسان الذي اتقن الصوم والصلوة والهذيذ الروحي فانهُ يُعطى من الله موهبة معرفة المزمعات » . والحال ان هذا المغبوط كان قد حصل على هذه الثلثة : اولًا الصلوة كان متى انتصب فيها وحده حالًا كان يشخص ما قصدهُ من غير تعب . ثانياً الصوم كان سهلًا لديه جداً . ثالثاً السهر كان اكثر لياليه ساهرًا وذاك الرقاد القليل الذي كان يرقدهُ وهو قاعد من غير ان يستند الى شيء . واستدام يرقد وهو جالس مدة اربعة عشرة سنة الى ان ارتسم مطرانًا . فان اردت ايها القارئ الحبيب ان تصدق ان ابانا حصل على هذه الثلاث فضائل هانذا اريد ان اظهر لك الاشياء التي أطلعنا هو عليها :

اولًا ليلة الواحدة وهو منتصب في صلاته في الكنيسة في آخر الصلوة رأى ذاته حزيناً فاذ تأمل ذلك زاد حزنه فتوجه الى قلايته ليرقد قليلًا كالمعتاد ولما كان بين الوعي والرقاد نظر شهب نارٍ في القلاية وشيئاً يقول لهُ : انظر يا عبد الله . وحين فاق رجع الى الكنيسة وجثا امام الهيكل وهو يهتف نحو يسوع بقوله : عرفني آثامي يا الهي . وثاني يوم عرض ذلك على احد اخوته الرهبان المعتاد ان يعطيه سره غير اوقات وقال لهُ هكذا : « يا فلان تجربة شيطانيَّة صارت في الرهبنة وانا لم اقدر ان اتسلى لكن في هذه الليلة يأتيني خبرها » وهكذا صار لأن بعد يومين اتاه الخبر عن دير ما ان لولا عناية الله وصلاته لصار سقطة عظيمة في احد الرهبان والغريم بالذات اي صاحب التجربة جاء هو بذاته الى عنده واعطى المجد لله الذي ما سمح في كمال التجربة

ثانياً مرة واحدة كان موجودًا ابونا المشار اليهِ في دير مار انطونيوس قزحيا فارسل طلبني لاني كنت غائباً عنهُ في اشغال الرهبنة . ولما وصلت الى عنده امر ان يأخذوا تلك الليلة فرشتي الى قلايته وبعد صلاة الستار اخبروني ان رقادي يكون في قلاية ابينا فعجبت انا من ذلك وما خليتُ من آثار الوهم وصرت كأني مذهول ونبَّه عليَّ ان لا احد يجي لعنده وانتصب يصلي زمانًا وبعد ان خلص صلاتهُ طلبني لأكون قاعدًا جنبه وقال لي هكذا : « عليَّ همٌّ لا يُقدَّر ولم ارَ لي مسلّي يسليني » . واما انا بما اني عارف انهُ يتكلم بالغيب كما سبق لهُ مرارًا عدَّة وبما كان لي عليه دالة ونحن وحدنا قلت لهُ هذه الالفاظ : بديت تبشرنا بالعكس . فتبسم وكان جوابهُ لي : بدك مرزَّبة حتى تصير راهب . فرديت له الجواب : قول حتى نقشع . فقال : يا توما الرهبنة قادمة على تجربة عظيمة

بخساير بليغة ولكن انا مستصعب واحدة ان في هذه التجربة موت رهبان قتلاً وانا فكرتي لئلا تكون انت واحداً منهم — فقلت له : اخبرني كيف يكون موت رهبان قتلاً بسلاح او بغيره . اجاب : يا ولدي هذا شيء مخبأ عني وكان مرادي ما تفارقني لاني اخاف عليك . وسبب خوفهِ علي لانهُ كان واقع مخاصمات ما بين الرهبنة واهل البطريرك يعقوب بعد رجوعهِ الى الكرسي البطريركي (١ وكانت اهل الجبال منقسمة اغراضاً جميعها من اكليروس وعوام وحكّام وبما اني كنت انا اباشر الاشغال نيابة عن الرهبنة فهذه علة خوفه . ومن بعد ان اخبرني هـذا الخبر فكلما كنت افارقهُ فحين ارجع كان السعيد الراهب الذي يبشره ان القس توما اتى

وفي احدى السنين حدث غلاء عظيم في طرابلوس وجبة بشراي وفي كل البلاد وبلغ ثمن كيل القمح الى سبعة غروش (٢ وليس كان لهُ وجود وكان عدد الرهبان في دير قزحيا ينوف عن الاربعين راهباً واجراء ومكارية ثمانية ورعيان المعزى والبقر اثني عشر وبطوش (٣ وذوي عاهات يعيشون من حسنة الدير ثلاثة عشر واحداً وكل واحد من هؤلا البطوش كان ياكل في وقعته قصعة طعام وأتوف من عشرة ارغفة خبز . ومع هذا العدد جميعه فالضيوف والزوار الذين كانوا يتواردون كل يوم الى الدير واغلبهم من شدة الجوع لياكلوا وكان عددهم غير مقدر . ومفهوم عندكم ورود الضيوف والزوار لقزحيا غير ايام الغلاء فكم يكن في ايامه اوفر . ومع هذا جميعه لم يكن موجوداً في الدير قمح سوى مائة وخمسين كيلاً لا غير موضوعة في بئر في كنيسة مار افرام خلف المذبح . وكان قزحيا يقطع كل يوم كيلين ونصف طحين على العدد المذكور من رهبان ورعيان واجراء وضيوف فيكون في الشهر خمسة وسبعين كيل طحين . وكان باقي لطلوع القمح الجديد في السواحل سبعة اشهر . فتشاور البعض من الرهبان فيما بينهم ان يكلموا عبدالله

١) اطلب المشرق (٤ : ٢٦٣) وسلسلة بطاركة الطائفة المارونية (١٧٤ و١٨٦) وتاريخ الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية للخوري ميخائيل غبريل (٢ : ٥٥٠) والجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل للسيد يوسف دبس (ص ٤٣٠)

٢) كان الغرش يعادل الريال في ذلك الوقت اطلب كتابنا (Documents inédits pour servir à l'Histoire du Christianisme en Orient, T. I., p. 571.)

٣) البطوش لفظة عامية بمعنى الضيفن والمتطفل والتنبل مفردها بطش

ليصرف هؤلاء البطوش من الدير الذين كل واحد منهم ياكل في وقعته هذا القدر بزعمهم ان القمح قليل وليس بمعلوم انهُ يكفي الرهبان والاجراء اللازمين علاوةً عن الضيوف وفي البلاد مالهُ وجود والانسان في وقت الضيق يلتزم بالأضرّ والالزم لهُ . وحين عرضوا آراءهم عليهِ استصعبها جدًّا واجابهم قائلًا : اذا طردنا هؤلاء البطوش المساكين من الدير من اين يعيشون لان البشر ما احد منهم عمال يطعم احدًا ودير قنوبين الكرسي خراب ما احد يلفي عليهِ وهل ترون صوابًا انهم يموتون من الجوع والاله الذي يقيتنا على المذابح اما هو قادر ان يقيتهم ؟ اما يوجد في احدكم ايمان الاله الذي يتقدم كل يوم مرات عديدة حيث هو موجود القمح انهُ قادر ان يقيتنا ويقيتهم والشيء الذي تقولونه انا لا اعمله بل القمح الذي عندنا ناكله نحن وهم . فاجابه الرهبان : مثل ما تريد يا ابانا ولم يكتفِ عبدالله بهذا فقط بل ارسل الى وكيل الرهبنة ليشتري له لكل واحد من البطوش المذكورين كسوة كاملة اي لكل واحد عباء ومقطعًا وعرقية وشالة ومداس وكساهم كسوة جديدة واستمر يقدم لهم الاكل كما كانوا ياكلون اولًا من غير نقص . فيا لهُ من ايمان حيّ فاعل لانهُ صادق هو القائل : مهما تسألون بالصلوة آمنوا انكم تنالونهُ فيكون لكم الخ . لان القمح المذكور كفى لعدد الجمهور ولكافة الضيوف الواردة الى الدير الى ان طلع الشعير الجديد في الساحل فاشتروا واكلوا الى ان طلع القمح الجديد في السواحل ايضًا فابتدوا ان يشتروا وياكلوا حتى طلع قمح الدير الجديد

ويومًا من ذات الأيام كنّا قاعدين في دير مار انطونيوس قزحيا على السطح بعد العشاء كالمعتاد وكنا أنوف من خمسة واربعين راهبًا وكان يتكلّم ابونا بامور روحية حسب عادته : ومن عادته في آخر التنزيه لا بد ما يرمي كلمة ما تضحك الرهبان وتبسطهم وكانت هذه دليلًا ليبدأوا يتكلمون مع بعضهم . فحين صار ما ذُكر التفت اليَّ والى اثنين من المدبرين وقال هكذا: « انظروا الى هذا الثمر المنقَّى في خدمة يسوع وهذا الجمهور المبارك الذي لا بد ما لعدوّ الخير ذاك الاركون يضرب البعض منهم » ومع قوله هذا اهطل الدموع

ويوم آخر كنت انا والمذكور في طرابلس فجاء واحد من المسيحيين اسمهُ ابو نصَّار حاتم من كفرزينا لهُ ولد وهو ابنهُ البكر وعمره نحو ست سنين فترامى ابو الصبي على

حتى اقدم ابنهُ الى ابينا ليصلي عليهِ لان الولد كان لهُ نحو ثلاث سنين في مرض عجز عن شفائهِ الاطباء. وكل من كان ينظره كان يحسبه من الموتى. فانا ما تجرأت ان اقدم الصبي الى ابينا بل ارشدت والدهُ اليهِ كأنهُ جاء الى عنده في شغلة وبهذه الواسطة ابونا يصلي عليهِ وهكذا صار. فدخل ابو الصبي الى عنده وبدأ يكلمه وبعد برهة قليلة اخذت انا الصبي وادخلتهُ عندهم وكان قولي: «الصبي يريد اباهُ» وبعد قليل شرت على ابي الصبي حتى يطلب الصلوة لابنه من الرئيس فصلى عليهِ وبعد صلاته بزمان قليل جدًّا برئ الصبي وانا اكلت التوبيخة بقوله لي: امش مستيماً ولا تبربك عليَّ ولا على غيري (لها بقية)

زلّة الشبيبة

للاب لويس فؤاد اليسوعي

على بضع ساعات من سان فرنسيسكو قرية صغيرة فيها ابنية معدودة يقطنها نفر يسير من اغنياء كاليفورنية وفي جملة سكان هذه القرية سيد يبلغ الستين من العمر يقال لهُ المركيز دي مرتاغ كانت زوجتهُ قد توفيت من مدة وتركت لهُ ثروةً واسعة من الاموال والعقار ولمَّا لم يرزقهُ الله وريثاً ينتقل اليهِ مالهُ بعد وفاته جعل الفقراء موضوع عنايته واهتمامه. فكان اولو الفاقة يفدون الى قصره مستعصمين بجوده فيفيض عليهم سجال احسانه

وفي ذات يوم نزل عنده فتى غريب فدنا منهُ ورفع قبعتهُ مسلماً. وكان الفتى في عنفوان الشباب مشرق الجبين تنبئ عيناهُ السوداويتان عن نباهة وذكاء غير ان صاحب البيت استغرب صورتهُ فسألهُ ان يعرّفهُ بشخصهِ. قال: اسمي هنري لانور. ثم قدّم للمركيز رسالة بعنوانهِ ففضّها واذا هي من اعزّ اصدقائهِ السيد جاك اروست احد اعيان سان فرنسيسكو يُوصيه فيها بالشاب هنري وكان هنري وُلد من والدين رقيقي الحال لم يقسم الله لهما ان يتمتعا بمشاهدة ابنهما طويلًا فتوفي كلاهما وتركاه لطيماً لا سند لهُ غير احد معارف عائلتهِ المسكينة السيد جاك المذكور الذي تكفّل بتثقيفهِ. فلمَّا اتمّ الولد دروسهُ ولم يتيسَّر لهُ الحصول على مصلحةٍ يرتزق منها فكَّر قيّمهُ السيّد جاك بصديقهِ المركيز دي مرتاغ ليمدَّ اليهِ يد المساعدة ويرشدهُ الى عمل يعيش منهُ فأتخذهُ

هذا معيناً لهُ في شؤونه ونظمهُ في سلك عمّاله. فشكر لهُ الفتى فضلهُ بارق العبارات وكان المركيز يأويهِ في غرفةٍ من قصرهِ ويحسبهُ كأحد ابنائهِ

غير ان معاشرة المركيز واهلهِ لم تكن لتلذّ الشاب هنري لأن نفسهُ الامّارة كانت تدفع بهِ الى الملاهي فاطلق لها العنان وجعل ينزع الى ارتشاف كأس الملاذ والمقامرة فما لبث ان تقرَّب من بعض الشبان ممَّن عدلوا عن سنن الآداب فكان يقضي معهم الليالي في فُندق بإزاء القصر يعاقرون الخمرة ويتجاذبون الاحاديث البذيئة والاغاني الخلاعية. ولم يمضِ يسير على هنري حتى صرف ما كان قد خصَّصهُ لهُ المركيز لمعاشه فسمع صوت ضميرهِ ينكّب بهِ عن اولئك الرفقاء الاشرار وقد تبيَّن السمّ الناقع في صدورهم لكنَّهم لم يزالوا يدالسونهُ ويبعثونهُ الى المصاريف الباهظة وهو يستحي بان يقرّ بقلّة ذات يدهِ. فاخذ يستدين من هذا وذاك حتى تثاقلت على عاتقه الديون وما عادت تأتمنهُ الصيارفة فتقرضهُ شيئاً من الدراهم ولا بابلغ ربا

وفي احدى الليالي اذ كان هنري صفر اليدين لا يملك فلساً وهو قد وعد رفقته ان يقوم بنفقات ليلة ساهرة استفزَّهُ شيطان المال فانساب الى صندوق المركيز وتناول منهُ ما سدّ بهِ حاجتهُ ثم استمرّ يختلف اليهِ يوماً بعد آخر وفي ظنهِ ان صاحب المال لم يدرِ بالخديعة لكنَّ ربَّ البيت كان داهيةً فضلاً عن تحنُّكهِ بالامور لا يخفى عنهُ شيء من احوال عاملهِ. فسكت أياماً عنهُ الى ان اتّضح لهُ امر خيانتهِ كوضوح الشمس فاعتزل في احدى مقاصير دارهِ واستدنى الخائن وقال لهُ انَّ لديه سرّاً يرغب بان يبوح بهِ اليهِ. وكأني بهنري قد تبيَّن مقصود المركيز وشعر بوقوفهِ على دفائن صدرهِ فارتعدت فرائصهُ وامتقع لونهُ. فقبض اذ ذاك دي مرتاغ على يد الشاب المرتجفة وحدّق اليهِ بنظره اللحّاظ ولبث هكذا برهةً ثم قال: انصت اليَّ يا هنري وايّاك ان تقاطعني حتى افرغ من الكلام... لقد تحقَّقت من مدَّة ان يداً اثيمة اختلست جانباً عظيماً من الدراهم في صندوق مالي. ولعلَّ اللص ظنَّ اني لم اعرفهُ لكنهُ خُدع بظنّهِ

فصرخ هنري متلجلجاً: وهل تزعم اني...

— لا تقاطعني حتى انهي حديثي. نعم عرفتُ السارق وما هو غيرك وقد وقعتُ على سندات زوَّرتها ولكني آثرتُ ان اكتم امرك حيناً واسبل الستر عنك لعلَّك تنقاد الى صوت ضميرك فترعوي عن اثمك وتنيب الى ربّك فكأني بك حسبت طول اناتي تنشيطاً

لمواصلة السرقة فلم يبقَ الّا ان ألقي القبض عليك فاودعك السجن ريثما يحكم القضاة في امرك. فلا بد من تسليمك لولاة الامر. امّا هنري فلمّا طرق هذا الكلام اذنيه اظلمت الدنيا في عينيهِ وكاد يسقط مغشيًا عليهِ. وبقي واجمًا كأنَّ صاعقةً صعقتهُ. فلم يجد لنفسهِ منجاة من بلائهِ الّا ان يقرّ بذنبهِ ويطلب الصفح من سيّدهِ فاطرح على اقدام المركيز يقبلهما وصرخ بصوت تخنقهُ العبرات: ارحمني سيدي ارحمني انا السارق.. لقد اوقعني اصحاب السوء في حبائلهم وبلغوا مني امالهم فجرى ما جرى

قال لهُ المركيز وقد احسَّ في نفسهِ رحمة للشقي: اتعاهدني يا هنري بان تنبذ عادتك السيئة ولم تعد الى السرقة ما دمت حيًّا؟. فاخذ هنري على نفسه العهد الاكيد انهُ لا يعود فيمدّ يدهُ لاختلاس فلسٍ ولو قضت بهِ الضرورة الى مقاساة الموت

فاكتفى المركيز بقولهِ ورضي بان يطلق سراحهُ بل وعدهُ بانهُ يكتم جريمتهُ ما سار في طريق الاستقامة وتقوى الله لكنّهُ لم يشأ ان يبقيهُ في خدمتهِ. ثم اخذ ينصحهُ بكلام مفعم انسًا ورقّة ويزوّدهُ بالمشورة الطيّبة. وممّا اشار اليهِ بهِ خصوصًا ان ينكب عن رفقة السوء الذين ألقوا بهِ في هوّة الاثم. وختم المركيز كلامهُ بهبة من المال تبرّع بها على هنري ليفي ديونهُ ويعود الى سان فرنسيسكو حيث يجد لهُ بحسن سجاياهُ عملًا يرتزق منهُ

فشكر هنري المركيز وقسم لهُ بأوكد الأيمان بانهُ سيقوم بوصاتهِ ويسير على مشورتهِ ثم ودَّع المركيز وانصرف تحت الظلام الى حيث نوى

*

مضى على ما روينا سبع سنوات ترقّى في مطاويها الشاب هنري لاتور الى مراقي العزّ وذروة المجد على ما لم يكن يخطر على بال وهاك خلاصة امرهِ:

لمّا وافى هنري حاضرة سان فرنسيسكو بقي أيامًا متحيّرًا في امرهِ لا يدري الى من يلتجئ حتى صرف آخر دولار كان اعطاهُ أياهُ المركيز دي مرتاغ فانطلق حينئذٍ الى احد مديري معامل العاصمة يدعى مارتيناس فعرض عليهِ حالتهُ وطلب منهُ ان يستأجرهُ بقوته اليومي الى ان يستدلّ على مقدرتهِ وكفاءتهِ. فرضي مارتيناس ونظمهُ ضمن عمّالهِ ليجرّبهُ فما عتّم ان وجد الشاب فهيمًا نشيطًا ذا حصافة عقل وثقوب ذهن فعيّن لهُ

راتباً حسناً تمكّن بهِ هنري ان يصلح حالهُ ويتّخذ لهُ غرفةً في احد فنادق المدينة

ثم انكبَّ هنري على الشغل متفانياً في خدمة صاحب المحلّ وهو يظهر لهُ من خلوص النيَّة والحنكة في التدبير ما حبَّبهُ اليهِ فجعل مارتيناس يقدّمهُ بين عمالهِ يوماً بعد يوم حتى رسخت قدمهُ وزاد نفوذهُ وربح مالاً واسعاً قرَّبهُ من وجوه سان فرنسيسكو

وكان في معمل السيد مارتيناس رجلٌ اسمهُ اندرو حديد الفؤاد مرهف الذهن اتّخذهُ صاحب المحلّ كناظر اعمالهِ لما عرف من فهمهِ على انَّ المذكور كان معجباً بنفسهِ شديد الغطرسة جافي الطبع وكان مع ذلك قليل الدين لا يحتشي من المجاهرة بمحاكمة اربابهِ وكان المظنون انهُ احد المتوظفين في الشيع السرّيَّة. فلما رأى اندرو ما كان عليهِ هنري من توقُّد الفهم وذكاء القلب همَّ باستغوائهِ وجذبهِ الى آرائهِ. فكان الشاب يتحايد عنهُ اوَّلاً على قدر طاقتهِ وهو يتذكَّر وصايا المركيز دي مرتاغ اذ حذَّرهُ من الرفقة الاشرار. لكنَّ اندرو لم يزل يتأثّر اعقابهُ ويتقرَّب اليهِ بالمواعيد ويخدعهُ بالاماني الطيّبة والتقدّم في المصالح والارباح الطائلة حتى اضعف عزيمتهُ واستمال قلبهُ. ثم عرض عليهِ ابنتهُ ليقترن بها ففعل وكان هذا الزواج كقيد جعل هنري طوع ارادة اندرو فنظمهُ بعد مدَّة في سلك جمعيَّتهِ السريَّة فصار بعد قليل من اعضائها العاملين يكتب ويخطب في بثّ المبادئ الكفريَّة ويسعى في مقاومة الدين وتنكيس اعلامهِ

وكان المركيز دي مرتاغ سمع بما آل اليهِ هنري لانور وكيف نسي وعدهُ وحنث بأيمانهِ فامتعض لذلك ايَّ امتعاض. فكتب اليهِ رسالةً ودادّيَّة يذكّرهُ بقسمهِ انهُ يحسن السلوك و يجتنب ذوي الالحاد ورفقة السوء. فاثّر الكتاب في هنري بعض التأثير لكنَّهُ أنف من الرجوع الى الوراء فصمَّ سمعهُ دون وصيَّة سيّدهِ ومزَّق الكتاب لئلا تكون معاينتهُ لهُ كمنخاز لضميرهِ وواصل ما الفهُ من الاعمال السيّئة

ثم رزق الله هنري في تلك الاثناء ولداً ذكراً دعاهُ شرل فنما الصبيّ وترعرع حتى كاد يبلغ الخمس من عمرهِ. وهو متوقد الذهن تلوح على وجههِ ملامح النجابة والذكاء. فكان يجري كلُّ شيءٍ على غاية ما يبتغيهِ هنري الحظ أليفهُ والسعد حليفهُ

وكانت تلك السنة السنة الخامسة والعشرين لانشاء الكنيسة الكاثوليكيَّة في سان فرنسيسكو ولجلوس اوَّل اسقف كاثوليكيّ على كرسيّها فيها فعزم الكاثوليك ان

يقيموا بهذه النسبة اعيادًا شائقة في تلك الحاضرة فاعدُّوا مؤتمرًا دعوا اليهِ اعيان الكاثوليك من انحاء اميركة واشاروا الى مشاهير الخطباء ان يُلقوا في اثناء تلك الحفلات الخطب البليغة يبعثون فيها الهمم الى المشروعات الخيريَّة وتعزيز المساعي الدينيَّة. وكان المركيز دي مرتاغ مشهورًا ببارعتهِ وطلاقة لسانهِ وسموّ مداركهِ فوكلوا اليهِ ان يخطب في احد ايَّام المؤتمر الحافلة فلبَّى الدعوة شاكرًا

فلمَّا كانت اوَّل ايَّام ايلول من السنة ١٨٨٢ اجتمع عدد وافر من نخبة كاثوليك اميركة في سان فرنسيسكو وافتتحوا المؤتمر برونق لا نظير لهُ وكان اهل المدينة يتقاطرون الى تلك الحفلات ويشنّفون آذانهم ببلاغة خطبائها وكانت كلّ الجرائد على اختلاف نزعاتها تثني على هذا المؤتمر وتطري اعمالهُ لم يُستثنَ منها الَّا جريدة او جريدتان عُرفتا بروحهما العدائي للكنيسة. لكنَّ الجميع كانوا ينتظرون بفروغ الصبر الحفلة الكبرى التي يخطب فيها المركيز دي مرتاغ

وكان اعداء الدين يعاينون تلك الحفلات وفي قلوبهم تغلي مراجل الحقد والشحناء. على انهم كانوا يتوقعون شرًّا اعظم من الحفلة الكبرى التي يتسنَّم فيها منبر الخطابة ذلك المقوال المفوَّه المركيز دي مرتاغ فتفاوضوا بينهم ليجدوا وسيلةً لاستدراك الامر فلم يجدوا لمحاكة الحفلة الكاثوليكيَّة الَّا اقامة مأدبة في ذلك اليوم يدعون اليها اعيان البلد ويختمونها بخطاب في خذلان الدين وارباب. فصادقوا على ذلك وعهدوا الى هنري لاتور بالقاء الخطاب بين الحضور فرضي شاكرًا واختار لموضوع كلامهِ «مساوئ الكنيسة الكاثوليكيَّة» وفي اليوم التالي اعلنوا الامر في اعمدة الجرائد المحليَّة مع ذكر اسم الخطيب وموضوع خطابهِ. فاثار هذا الخبر في اهل المؤتمر ورأوا فيهِ نيَّة سيئة من اعداء الدين ليلقوا الشكوك في البلد ويثيروا الفتن على اهل الدين

امَّا المركيز دي مرتاغ فلمَّا قرأ اسم هنري لاتور اخذهُ الدهش من امرهِ وكان منذ بضع سنين قد انقطعت بينهما المراسلات فلم يعلم ما جرى لعاملهِ القديم. فاماط الاعلان المنشور في الجرائد الستر عن مكنون احوالهِ وفهم المركيز انهُ وقع في اشراك الملحدين ورفقة السوء الذين حذَّرهُ منهم. ففكَّر في امرهِ مليًّا حتَّى الهمهُ الله طريقةً لرد كيدهِ في نحرهِ فانهُ ارسل من ساعتهِ نبأ برقيًّا الى عاملهِ في نيويرك ليأتي اليهِ سريعًا باوراق سرّيَّة كان يحفظها في احدى مصارف تلك المدينة وبقي رابط الجاش مداومًا

على اعمال المؤتمر كأنهُ لم يدرِ بما يعدهُ الزنادقة من المعارضة لهُ يجيب من يباحثهُ في ذلك انَّ الله على كل شيءٍ قدير فيقوى على خذلان اعداء الدين مهما هاجوا وماجوا وطغوا وبغوا ·

وكان عامل المركيز دي مرتاغ رجلًا هماماً اطوع لسيدهِ من بنانهِ فمن ساعتهِ احتقب اضابير الاوراق المطلوبة وركب قطار السكة الحديديَّة فحضر سان فرنسيسكو في ضحى اليوم السابق لاجتماع المؤتمر الحافل

وكان حزب المعادين في تلك الاثناء اعدُّوا كل لوازم الدعوة واستأجروا لهذه الغاية اكبر نوادي العاصمة · امَّا هنري فاستفرغ كنانة جهدهِ لتأليف خطبة رنَّانة أشربها من روحهِ سمًّا على اهل الدين ينفثهُ في قلوب السامعين ثمَّ ينشره في الجرائد الاميركيَّة ·

وكان كل اهل المدينة في انتظار لما سيجري في غدٍ بين الحزبين فمنهم من يبشر الكاثوليك بالنصر ومنهم من ينسب الفوز لاعدائهم

فلمَّا خيَّم الليل على سان فرنسيسكو ركب السيد دي مرتاغ عجلة وسار مستخفياً الى بيت هنري لانور فطلب مواجهتهُ دون ان يبوح باسمهِ · فأُدخل الديوان واذا بصاحب البيت قد تقدَّم لاستقبالهِ · فلما عاينهُ هنري اضطرب لدى رؤياه لكنَّهُ تجلَّد واشار اليهِ بالجلوس فاندفع المركيز قائلًا :

اخالك نسيتني يا هنري انا المركيز دي مرتاغ الذي اويتك مدَّة في قصري

— نعم وانا لا ازال شاكرًا لك فضلك وهل يمكنني ان اقدم لجنابك خدمةً

قال المركيز : كنت وعدتني يا هنري عند مفارقتي بانك لا تعود تعاشر اهل السوء

— ومن هم الذين تعيّرهم بهذا الاسم

— هم جماعتك الذين ستقوم فيهم خطيبًا يوم غدٍ و · · · · · ·

فلما سمع هنري هذا الكلام قاطع المركيز وقام كأنهُ يريد الباب وقال : لا احبُّ انَّ احدًا يتداخل في اموري ويدخل بيتي ليشتمني ولولا كرامة الضيف لفعلت بك كيت وكيت

اجاب المركيز : على رسلك يا هنري ولا بدَّ لك قبل أن اخرج من دارك ان تعدني الوعد الوكيد بأنك يوم غدٍ تكفُّ عن خطابك

— اني افعل ما اشاء وليس لاحد ان يتعرَّض لي في شؤوني

فتح المركيز قمطراً كان معهُ واخرج منهُ سندات مزوَّرة نشرها امام هنري وقال : اتعرف هذا التوقيع ؟ ......

فسكت هنري وتبدَّلت سحنتهُ كأنَّ مدية نفذت في قلبهِ فلم يحرِ جواباً

فاردف المركيز : اعلم يا هنري انك ان امتنعت عن خطابك فيهِ والّا الجأتني الى ان انشر خبرك على رؤُوس الملأ فيعرف كل اهل سان فرنسيسكو انك الخائن السارق وتُلقى في السجن بقيَّة حياتك

— ولكن كيف اتخلَّف عن وعدي بالخطاب وشرف اسمي يقتضي مني ذلك

— يطلب منك الشرف ان لا تجاهر بالعداوة الدين وذويهِ وانت تعلم انَّ كلامك محض اختلاق ليس فيه ذرَّة من الحق

— لا يمكنني ان انكث بوعدي

— الامر امرك فلا تلُم غير نفسك ان حلَّ بك سوء . ثم توجَّه المركيز الى الباب فامسكهُ هنري قائلاً : ارحمني سيدي وارحم قرينتي وابني وليس لهما عضد غيري

— بل ارحم نفسك وارعوِ تائباً الى ربك

— او صمَّمتَ على نشر هذه الاوراق ؟

— بلا شكّ

— فاولى بي إذن ان انتحر فاخلص من احد شرَّين لا مناص منهما . قال هذا ثم اسرع فاخذ غدَّارة وقال للمركيز : « الوداع يا مركيز واعلم انك انت قاتلي »

ثمَّ صوَّب الغدارة الى رأسهِ فوثب المركيز عليهِ وانتشل من يدهِ الغدَّارة صارخاً « بل عش مهنَّأً وابقَ لابنك ولقرينتك واعلم انَّ الكاثوليكي اكرم منك نفساً » واستخرج الاوراق المزوَّرة ثمَّ اجرقها في لهيب قنديل كان هناك وخرج قائلاً : « استودعك الله يا هنري ولست ارضى بحكم بيننا غيرهُ تعالى فهو ينصفنا »

ثمَّ توارى عنهُ . وكان هنري رأى ما فعل المركيز وسمع كلامهُ الاخير وهو لا يعي من دهشتهِ . وبقي هنيهةً بعد خروجهِ لا يعلم اهو حيّ او ميت . فلمَّا عاد الى نفسهِ وادرك شرف نفس المركيز ومروَّتهُ هطلت بوادر دمعهِ وبقي ساعةً تخنقهُ العبرات . فلمَّا سكن جأشهُ قام الى غرفتهِ فكان اوَّل ما وقعت عليهِ عينهُ نسخة خطابهِ الذي اعدَّه لغدٍ فثار ثائرهُ واخذ الخطاب ومزَّقهُ واحرقهُ كما فعل المركيز بالسندات المزورة وقال :

لا اكون اقلّ مروءة من المركيز وها هوذا قد انقذني مرّتين من الذل والهوان. ثمّ ايقظ امرأتهُ وامرها بان تهيّئ حالها للسفر وفي ساعته جلس هو وكتب الى المركيز رسالةً يشكرهُ فيها على صنيعهِ ويطلب منهُ الصفح عن سوء سيرتهِ ويعدهُ انهُ منذ اليوم سوف يضحي مثالًا للاستقامة وقدوةً للجميع وانهُ يسبق المركيز الى قصرهِ حيث يتخذهُ هناك كدليلهِ في سبل الخير وكمرشدهِ في كل عمل مبرور

*

بزغت شمس اليوم الرابع عشر من ايلول في بهائها ورونقها. وكان اصحاب المؤتمر الكاثوليكي قد اجتمعوا صباحًا فاجروا في الكنيسة الكاتدرائية رتبًا فخيمة تولّاها رئيس الاساقفة ثمَّ خرج القوم الى ردهة الخطابة فغصّت بعد قليل بالحضور: ورقي المنبر السيد دي مرتاغ فخطب في الدين ومشروعاتهِ خطبةً انست الخطب السابقة بلاغةً فكاد السامعون يطيرون لرشاقة معانيها وقابلوها بتصدية الايدي الف مرَّة

امَّا نادي الجمعيات السرية فكان اهلهُ زيَّنوهُ باصناف الزينة والرموز وهم يؤمّلون نجاحًا لا مثيل لهُ. فلمَّا حانت الساعة وحضر المدعوُّون طلب المقدَّمُ هنري لانور لاستقبال الناس فلم يجدهُ: فارسل رجلًا يستقدمهُ ويستنهض همتهُ فوجد الدار مقفلةً ليس فيها ديار. فسال الجيرة عن امرهِ فلم يعلموا ما يجيبونهُ بهِ غير انهم وجدوا عند بابهِ رسالةً باسم رئيس المحفل فاخذها الرجل وعاد الى مجلس المدعوين وكانوا في اثناء ذلك جلسوا على المائدة يأكلون هنيئًا ويشربون مريئًا. فسلّم الالوكة الى الرئيس فما كاد هذا يقرأ اسطرها الاولى حتَّى تنمَّر غيظًا وقام في وسط المدعوين قائلًا: «ايُّها الاخوة قد خاننا الخطيب وولَّى من المدينة هاربًا ولست اعلم ما جرى لهُ»

وقع هذا الكلام على قلوب الحضور وقع سيول الماء على لهيب النار فهدأت الاصوات وخمدت جلبة القوم فخرجوا بعد قليل مخذولين نواكس الرؤوس يودُّون لو لم يُدعَوا الى تلك الحفلة المشؤومة التي البستهم ثوب العار

وبعد يومين عاد المركيز دي مرتاغ الى وطنهِ فارسل واستدعى هنري لانور وسلمهُ ادارة معملهِ كما كان في معمل السيد مرتيناس فادَّى لهُ هنري الشكر على فضلهِ وانقطع الى خدمتهِ بنشاط لا يعرف الملل ولم يلبث أن نبذ تعاليم الكفر وعاد الى اتمام واجبات الدين فذاق من راحة القلب ما كان فقدهُ منذ ابتعادهِ عن ربهِ. وما زال هو وعائلتهِ

يودّعون يوم فرح ويستقبلون مثلهُ وكان هنري يكرّر مرارًا على ولدهِ « اياك بنيَّ وزلّات الشبيبة فأنها تعمي العقل وتضرب على البصيرة وتؤدي بالمرء الى افظع المآثم. فلولا نعمة الله ورحمتهُ بي لكنتُ الان في هوّة البؤس والتعاسة »

رحلة ابرهيم الحكيم الحلبي الى مصر

عُني بنشرها الاب لويس شيخو اليسوعي (تتمَّة)

ثم انهُ في ثاني الأيام. بعد ما عملوا لنا كل اكرام. اخذونا الى مكان المنـدام. قد راق ماؤهُ. وزاد صفاؤهُ. واعتلَّ هواؤهُ. وتعطرَّت ارجاؤهُ. وتلامعت حصباؤهُ. وفيهِ من لطف النسيم. مـا يشفي السقيم. ويداوي جرح الكليم ويغني عن الحكيم. ويحيي الميت الرميم حتى حسبناهُ من فردوس النعيم. وفيهِ ما يدهش الابصار. ويحيِّر الافكار. من اشجار واثمار وازهار وانهار. وتغريد الاطيـار ليلًا ونهار. حتى خلع كل منا العذار دون شرب العُقار. لانهُ ما ناح الحمام. الّا وزاد الغرام. وما غنت القماري. الّا وازاحت اكداري. وما صدحت البلابل. الّا وهاجت البلابل. وما صوَّت الشحرور. الّا وجلا همَّ الصـدور. وما سجع الهزار. الّا واثار الافكار. وحرَّك التذكار للديار ونظم الاشعار:

لقد زاد الجوى صوتُ القماري ... وذكرني الاحبَّـة والسحاري
وتغريد الحمام اذا تبدَّى ... بدا فينا الهيامُ الى الديارِ
وقلت لرفقتي يا قوم هاتوا ... لتغتنم المنى في ذي الصحاري
فدارت بيننا كاسات راحٍ ... وريحـانٍ وورد مع عُمارِ
وقد ضرب الغمام لنا خيامًا ... سرادقها كست تلك البراري
ومرَّ بنا نسيم البان لمَّا ... ابان لنا صبابة ذا النهار
وقد ذرفت عيون السحب درًّا ... كما زهر الربى حال الفخارِ
وكلَّلها بياقوتٍ ثمينٍ ... وتيجان اللجين مع النضارِ
فنمَّ اريجهـا في القطر طرًّا ... وعطَّر نشر هاتيك القفارِ
وذكرني شذا الشهباء لمَّا ... يضوع عبيرهُ وقت السحارِ
فحيَّا الله تربتها وماها ... وطيب نسيمهـا كل النهارِ
وحيَّا اهلها اهلًا كرامًا ... ذوات الفضل عنوان الفخارِ

ثم اننا بعد ان قضينا الاوطار . من هـذه الاقطار . ارتحلنا من بيروت في اليوم التاسع . ورفعنا الشُرُع وسرنا عن تلك البلاقع . الى ان توسطنا بين بيروت وصيدا . فطلع علينا قرصان الانكليز فابتدأوا يرموننا بالاطواب والمدافع . حتى كلّ منا هلع . وعلى وجهه وقع . واحتسبناها اشدّ المواقع . وما بقي لنا منها مانع ولا دافع . وبعد ما أيس القبطان . من الحرب العوان طلب الامان . وابتاع السفينة . ووضع ابنهُ عندهم رهينة . وذلك لاجل الحروب التي بينهم واقعة . صارت بينهم المبايعة من غير منازعة . فلمّا خلصنا منهم . وابتعدنا عنهم . عاد كل منا لله ساجد . ولفضله شاكرًا وحامد . وانّما طلع علينا ريح شارد واوردنا شرّ الموارد . وساقنا الى ظهر البحر . وابعدنا عن كل فج وبرّ . فاستقمنا عشرة ايّام ونحن تائهون . لا نعلم الى اين متوجهون . وذلك مع كثرة اختلاف هبوب الارياح . وفرط الاضطراب والاكداح . وقلة النوم وعدم الارتياح . حتى عدنا كالاشباح العادمة الارواح . وقد ارانا البحر كثرة اهواله وسوء احواله . وسرعة انتقاله وشدة نكاله وعظم وباله . وتقلب احواله وفرط هجره ومطاله . ولمّا لم يبقَ لي مجال لاحتمال هذه الاثقال . ناشدتهُ بهذا المقال :

حماك الله في بلوى فمالك ... فما ازرى نكالك في عمالك
تمشُ برقّة وصفاء قلب ... فتصرعنا بكيدك واحتيالك
تذيق لبعض قوم عذب كاس ... وتسقي الاكثرين طلا نكالك
فكم غرّبت في ريحٍ اناسًا ... وقد خسروا الحياة مع المالك
وكم غلّلت من بطلٍ همامٍ ... بدون الحرب اضحى في حبالك
وكم غرقت في ذا اللج قومًا ... فباتوا منغمرين بسوء وبالك
ألا يا غادرًا يا شر باغٍ ... إلامَ المكرُ دوبًا في اغتيالك
فلا كانت بك التجار تسعى ... ولو اغنيتَهم بجُنى نوالك
لقد اسقيتنا غصص المنايا ... وشمنا منك انواع المهالك
فكم آليتُ في عمري بألّا ... احلّ الغمر حيثما انت سالك
ولكنّ الضرورة الزمتني ... بزمي النفس في هذه التهالك
فانهمَ . . الاعادي ... رواة الكفر معوجّي المسالك
رعاة . . ب النبر تسعى ... على زجّ الرعايا في المهالك
وقد صرنا بهذا اليوم طوعًا ... أسارى في يمينك مع شمالك
ألا افعل ما تشا فينا ونحن ... لما فوّقت فينا من نبالك
ولكن قد رجونا البكر مريم م أمّ . الربّ سيدة الممالك

لتُنجينَا بهذا اليوم ممّا أصبنا بهِ ومن سوء المسالك
لندعها السلام على التوالي ونشكر فضلها السامي لذلك

ثم انهُ من بعد ذلك منَّ علينا العزيز المالك. وانقذنا من تلك المهالك. واهدانا الى خير المسالك. فوصلنا الى المينا. وعاد كل منّا امينا. فالقينا المراسي. وارتحنا من هول ما كنا نقاسي. ولم يبقَ علينا سوى قطع العقبة. فقطعناها بكل غلبة لانها عسرة وصعبة. اذ هي ملتقى البحرين. وموضع المنيَّة والحَين. وطلعنا الى دمياط. بهمة ونشاط وسرور واغتباط. فرايناها بلدة لا تُمدح ولا تُذم. الّا انها المناص من اليم. والخلاص من الغم بل من سفك الدم. والنجاة من التيَّار. وبما فيهِ من الاخطار. فما اقمنا بها الّا زمانًا قليل. حتى سرنا بلا تمهيل في بحر النيل. بكل سرور وتهليل وسير وتقيل ميلًا بعد ميل. بدون اضطراب واخفاق. حتى طلعنا الى بولاق. ونحن في غاية الاشواق الى وصولها والتلاق. ومن هناك وصلنا القاهرة في ليلة زاهرة. فوجدناها مدينة عامرة وخيراتها وافرة. وارزاقها متكاثرة واموالها متياسرة ومكاسبها متبادرة. ومتاجرها ظاهرة وامورها نادرة ولغيرها من البلاد مغايرة. وفيها العمارات الشاهقة والبنايات الفائقة والقصور المتناسقة. والجدران الباسقة والعقول الحاذقة. والافكار الرائقة والألسن التي بالفصاحة ناطقة. وهي مدينة زاهية الجمال زائدة الكمال. غزيرة الاموال وافرة الاغلال جامعة الاشكال متغيرة الاحوال. فلما رايت ما هي عليهِ من الحال عراني الاندهال واشتغل العقل والبال بوصفها على هذا المنوال:

يا سائلي عن حال مصر انها اعجوبة بين البلاد العامرة
تزهو على الدنيا بحسن صفاتها وبحسن ما فيها مباني فاخره
قد زُيّنت وتزخرفت ببهائها حتى حلت في كل عين باصرة
وكأنها وقصورها وربوعها فلك البروج بها النجوم السائرة
والنيل مع خلجانه فيها حكى حبل المجرَّة حاقها كالدائرة
سادت على كل الورى بمناقب خُصَّت بها فلذاك صارت نادره
قهرت ملوك الارض طرًّا وازدرت بولاتها فلذاك تدعى قاهرة
جمعت غنى الاقطار ثم محاسن ال الاعصار ثم غدت بها متفاخرة
وتعطَّفت نحو الغريب ولم تزل تبدي لهُ ودًّا وحسن معاشرة
وكأنما شُغفت بحب نزيلها بل لم تزل طبعًا اليهِ ناظرة
ما زارها يومًا كسيرٌ قلبهُ الّا وعادت فيهِ تجبر خاطره
ما أمّها ذو فاقةٍ بوداعةٍ الّا وعاد بثروةٍ متوافرة

يا حبذا اوطانها يا حبذا　سكانها تلك الاسود الكاسرهْ
لاسيما التجار مع ارزاقهم　من سائر الدنيا اتتها زائرهْ
تحمي النزيل بارضها وتجيرهُ　من كل غائلة عليهِ جائرهْ

ثم ان لهذه البلدة ثلثة مواسم كبار. ذوات اعتبار. اولهم يوم قصر النيل. فهو يوم مشهود عليهِ التعويل. والثاني يوم طلوع الحج والمحمل. وهو اشهر واجمل. والثالث يوم دخول الوزير. فهو يوم خطير ومفترج شهير. تجتمع فيــهِ الوجاقات وتترتب بهِ البُلكات. وتصطف الآلايات وترتفع الرايات وتُشهر السلاحات. كالخوَذ العاديَّة والدروع الداودية. والرماح الخطيَّة والسيوف الهندية والخيول العربيَّة المعكيَّة. بنظام عجيب وترتيب غريب

ثم ان لها اربعة مقاصف حسنة ظريفة. اولها مصر القديمة فهي بلدة ذميمة الا انها عظيمة. ذات قدر وقيمة لكثرة اموالها العميمة واهويتها السليمة. وثانيها الجيزة وهي بلدة وجيزة. لكنها عزيزة لمبانيها الحريزة. وربوعها البهيَّة وارياحها الطيبة الليِّنة. وقد احاط بها البحر. اكثر من البر. وهي تشعُّ كالنبراس. بجد المقياس. وثالثها المنيل (؟) وهو مكان ازهى واعدل وابهى واجمل واسمى وافضل. لان فيهِ مائة جميزة على حافة النيل مغروزة وكل واحدة اكبر من موزة واعظم من شجرة جوزة. وله ظل ظليل ما له من مثيل. ونسيم عليل غير قليل. يهبُّ من بحر النيل بغير تبديل. وهو يشفي العليل ويطفي الغليل. ولذلك قلت فيهِ هذا القول الجليل:

رعاك الله من دوح ظليلِ　يبيد البُرء للمضنى العليلِ
يمرُّ بهِ النسيم بلا انقطاعٍ　ومرَّ الشمس مقطوع السبيلِ
ونضرته وخضرته بواقٍ　مدى الايام في كل الفصولِ
ومخضل الفيافي ليس تلقى　سوى غيض على روض خضيلِ
أحاط بهِ الغدير فعاد يحكي　رياض زمرد في سلسبيلِ

ورابعها الروضة وهي مشتملة على غياض ورياض. ومناهل وحياض. واشجار واثمار وكروم وازهار. وبحار وانهار وتيار وابحار. وهي تدهش الابصار وتحير النظَّار. وقد قضينا فيها كل نهار يعد من الاعمار. حتى اخرجنا ابكار الاشعار من تيَّار الافكار:

يا لها روضةً تحاكي الفراديسْ　كم بها مائل الغصون ومائسْ
كم بها من قضيب بانٍ واسٍ　ينجلي في الرياض مثل العرائسْ
كم بها دوحة وروض وحوضٌ　واخال الما حيث ما كنت جالسْ

كم بها من خمائلٍ مزهراتٍ ... ومروجٍ كأنها من سنادسْ
وكأنَّ السحاب قد دبَّجتها ... بل وشتها ايدي الحسان الموانسْ
بلجينٍ وعسجدٍ وجمانٍ ... ولآلٍ من فوق خضر الملابسْ
تاه عقلي من حسن ما شمتُ فيها ... زُينت مع نوادرٍ ونفائسْ
قلتُ هذه جنات عدن وفيها ... كوثر النيل يسقي هذه الغرائسْ

وقد قضينا في هذه الامكنة الحسنة ثلاثة ايام . تساوي ثلاثة اعوام . وقد كنا مع بعض الاصدقاء في وليمة عظيمة . لها قدر وقيمة . ليلنا في الجيزة . ونهارنا في الروضة تحت الجميزة . وهذه الاماكن كجزيرة في وسط النيل . تضيءُ كالقنديل . ثم ان النيل في ايام ازدياده تيار . ما لهُ قرار ولا عليهِ عيار . تمرُّ به القوارب والمراكب ليلًا ونهار . بعضها للاسفار وبعضها للبسط وبلوغ الاوطار . والنشوة والسكر والعقار وخلع العذار . وناهيك من سماع الآلات وحسن الاصوات . من الرجال والقينات . وضرب الاوتار والجنك والطار والعود والمزمار . وغناء الموالي مع نشيد الاشعار . وكلما وصلوا الى جماعة استقاموا عندهم مثل ساعة واحسنوا الصناعة . وقد كنت مع هذه النشائق وطيب الاوقات لم أكفَّ عن تذكار الاوطان . وما بها من حسن منزل ومكان وقصر وايوان . وغيض وبستان . وروض وغدران وحوض وميدان وحسن المساكن والسكان . ومنادمة الخلان ومرافقة الاخدان ومصادقة الاخوان وطيب ذلك الزمان . حتى تحرك الجنان لنظم هذه الابيات الحسان :

ريح الصبا ان جزتَ بالاحياء ... حيّي الربا ومعالم الشهباء
بلّغ الى الاوطان منا انسمًا ... معبوقةً بسواطع اللألاء
وقل السلام عليكِ من صبٍ الى ... لقياكِ عاد ممزق الاحشاء
يصبو اليك من صباه لما بكِ ... من حسن خلان وصدق اخاء
فمسي صباحًا يا ديارَ احبتي ... واخضلّي بالرند وبالانداء
دارَ السلامة والكرامة والهنا ... دار الرضى والسلم والارعاء
دار تكلُّ اللسنُ عن اوصافها ... ويعود افصحها كما الفأفاء
ماذا اقول اذا وصفت صفاتها ... وباي موضوع اجيد ثناءي
هل ابدا من حسن المناخ وارضها ... وقراها مع لطف الهوا والماء
او يكتفي وصفي في جمال رياضها ... وغياضها وحياضها الحسناء
او عن فواكهها وحسن ثمارها ... ولذيذ مطعمها وطيب حساء
او حسن زخرفة القصور وما بها ... من منزلٍ سامٍ وزهو بناء
او عن جليل صنائعٍ وبضائعٍ ... تأتي وتقضي من مدى الدنياء

او عن عزيز مكاسبٍ ومواهبٍ ومتاجرٍ باهت بفرط غناء
او عن محاسن اهلها وجمالهم وكمال منظرهم بعين الراءي
كم ذا اعدّد في محاسنها التي فاقت محاسن سائر الانحاء
وغدت فريدة عصرها وزمانها ممدوحة القرباء والبعداء
لكنْ وا أسفاه لم تبقَ على ذاك الهنا والعزّ والارخاء
وتشتّتت ابناؤها وترددت في كل ناحيةٍ وقطرٍ ناء
وغدًا يسود بها العدو المعتدي ويكيد ابناها بكل اذاء
أترى يعود الله يجمع شملنا بالاهل والخلّان والابناء
وتقرُّ عيني باللقا ويطيبُ قلبي بالوصال وترتوي اعضاءي
واقول هذه منيتي قبلتها واجيد شكرًا للعلي مولاءي
يا ربِّ وفق لي الرجوع لارضها يا رب سهّل اوبة المتناءي
لنعود عن قرب الى اوطاننا بشفاعة البكر أمك العذراء

اما ما في هذه البلدة من حسن منازل ودور . وعلالي وقصور . وقاعات وخدور فهو شيٌ مشهور . وزايد الزينة والحبور وشي مستظرف ووافر الشرف . ويحتوي على تحف وطرف مما لا يوصف ولا يكيّف ومن جملة ما راينا في هذه المدينة ما حظينا بهِ بدخول بيت احد السناجق . في وقت موافق . للفرجة عليه لحسن مبانيه . ولكثرة عجب واضعيه . فلما نظرنا ما هو عليهِ من حسن النظام . وزخرف والهندام . فصدقنا فيه الكلام بان لا يوجد مثله بحلب ولا بالشام . وقد دخلناه في الساعة الرابعة وخرجنا منهُ في الساعة السابعة ولا زلنا طالعين من درج الى درج . ومن ضيقة الى فرج . حتى عرانا الزعج وعدلنا عن الفُرَج وطلبنا المقر والمخرج . وقد ابقينا مواضع كثيرة . كانت يدنا عنها قصيرة . ورانا فيها قاعةً . زاهية الصناعة . لم يكن لي على وصفها استطاعة . فكل حيطانها التي داخلها من المرمر . الابيض والاصفر والاسود والاحمر . وهي مفروشة بالديباج . المنسوج بالفضة والذهب الوهّاج . وقد يوجد مثل هذا السرايا سرايات ونظير هذه العمارة عمارات

فهذا شرح حالنا وكيفيّة ارتحالنا . وما عايناه في البر والبحر . وما شهدناه في الغربة وديار مصر . وقصدنا فيه الاخبار بوجه الاختصار . فالمرجوا اذًا من الفضل العميم ان تذكروا العهد القديم . والعود السليم . وتنتقدوا هذه الرسالة خير انتقاد وتصليح ما يوجد فيها من الفساد . من لفظ شارد وغلط زائد . ونثر بارد . لتنتفي منها العيوب واللحن

الاسلوب وتخفَّ على القلوب · ويكثر المرغوب ويحصل منها المطلوب · وعلى الله تعالى غفران الذنوب بما انهُ الملك المرهوب · وعليهِ الاتكال

ابن الامس ورجل الغد

خواطر بقلم « ابن عشرين »

الاديب ا . م . احد المتخرجين في كليتنا

في الخامس عشر من شهر تموز الغابر عند الساعة السادسة مساء بينما الموسيقى تعزف بالحانها المطربة واصوات التهليل تخرق كبد السماء تحت اقواس النصر الخضراء وسعوف النخل الباسقة خطوتُ اول خطوةٍ خارجَ جدران المدرسة التي تخرَّجت فيها وعلى جبيني اكليل الظفر وفي يدي الشهادة النهائيَّة غنيمتي المكتسبة بعد قراع وكفاح ثماني سنوات . . . .

خرجتُ على عربة فاخرة يقلّها جوادان فخرقتَ الجمعَ المحتشدَ وسارت تطوف مدينة بيروت . . . فحسبتُني احد قوّاد الرومان المظفَّرين صاعدًا الى هيكل الكابيتول ليقدّم للآلهة المحرقات وهو مكلَّل بالغار على مركبة النصر يجرّها اربعة من الخيول المطهَّمة والشعب يهلّل والجنود تحيط بهِ بين لمع الصوارم وبريق الخوَذ وصرير الاسلحة وصهيل الخيل وجلبة القوم . . . .

تلك زهوة مضت وصورةٌ امحت وخيالٌ قد زال فكأنهُ برقٌ خُلَّبٌ . . . زيَّنتهُ المخيلة ولعبت باشباحهِ كما راق لها . . . مرَّت تلك الساعة ولم يبقَ منها سوى ذكرها . .

صعدتُ الى الكابيتول المسيحي اي جبل الرب فجثوت في كنيستهِ وجثا معي كل من يحبني واحبهُ فرفعتُ محرقةً روحية على مذبح إلهِ الجنود ورب النصر . . . رفعت اليهِ عقلي وارادتي وقلبي وسأَلتهُ ان يجعلَ في نفسي ما يليقُ بمسيحيٍّ ابن عشرين . . .

☆

والآن انا في الغرفة وحدي امام كتبي واوراقي والسكون حولي سائد . تتكسَّرُ عند عتبتي آخرُ ضوضاء الازقة ويضمحلُّ عند الباب صدى الجلبة وضجيج الاسواق . . عدتُ الى نفسي وقلتُ لنكتب . . .

لكتب ... ولكن ليس من بضاعة المخيلة او ترويق الكلام بل من حقيقة الحال وزبدة الافكار ... هي افكاري أبديها . افكار ابن عشرين كان بالامس على مقاعد المدرسة يستفزهُ نظم الشعراء ويصفق للخطباء ويناجي الفلاسفة ويتصفح التاريخ فيجوب الدنيا مع الفاتحين والمكتشفين ويقلب الكرة الارضية مع علماء الجيولوجية ويرصد الفلك الدوّار ويختلس اسرار الطبيعة مع الطبيعيين ... ها هوذا يُلفي نفسهُ منفردًا وسط هذا العالم بعد ان جابهُ بالفكر وقلبهُ ظهرًا لبطن وهو لم يبرح من مكانهِ

رتبةُ المدرسة اعوامًا . لقّنتهُ ما جرى في قديم الزمان . علّمتهُ كيف تسيرُ الحوادث وكيف يعرك الامور وتعركهُ وكيف يذللها بحزمهِ وشهامتهِ . ارتهُ الفضيلة في رجال الفضل فحبّبتها اليهِ . والرذيلة في اهل السوء فبغّضتها لديه . وما نفوره من الرذيلة ومحبتهُ للفضيلة الّا بسلامة الطبع وجودة العقل . انما هناك ارادة ان لم تتقوّم اعوجّت . وان لم تُدرأ في سواء السبيل شردَت في مهامهِ الغواية .... فسمع في باطن ضميرهِ صوتًا يقول لهُ : شدّد ارادتك بالحزم وكن رجلًا

والقلب ... آه من القلب ... ما ارقّهُ وما اقساه ... ما اصلحهُ وما افسده هو نبعٌ ان لم يطفح منهُ الماء الزلال تبجّس بالماء الاجاج وطفح بالعكر ... وان لم يدرّ عسلًا درَّ علقمًا . لكن ان تربّى وتهذّب كان معدن الشهامة ومصدر الافكار السامية

قضيت ثماني سنوات أذخرُ ما يُذخر واصلح ما يُصطلح استرشد الاماثل واقتفي معالم الافاضل وها انا خارجٌ الى معترك الأيام اعرضُ عزيمتي على محك صعابها واجلي فكرتي بدرسِ طباعها المتقلّبة وأُجرّب قلبي بمخالطة ابنائها لارى هل انا من رباطة الجأش وثبات العزيمة على شيء .

كنت انظر الى الحياة كما ينظر اليها كل تلميذ فاراها باسمة وضّاحة الجبين ... سلّمٌ يصعدُ عليهِ كلُّ من شاء . وفي اعلاه الغنى والشرف والنصر والسرور ...

هكذا كانت المخيلة تروقها لي فاصدّقها لانني كنتُ اذ ذاك ابن المخيلة . واما الآن فانا امام الحقيقة الوضعيّة . لم اعد ابنَ الامس انما انا رجل الغد

تعلمت بالفكر خوض الحوادث وعمّا قليل اخوضها بالعمل ...

احبُّ هذا العراك عراك الحياة واشتاق اليهِ بكل قواي وقد قيل : « الرجل رجل العمل لا رجل الامل » قد خاض غباره اجدادي ولم يكونوا جبناء . وانني لاشعر في عروقي

بدم يغلي هو دم الذين صادمتهم الأيام فصدموها . وغالبتهم الحوادث فغلبوها ولكن كم أصيبوا بجراح وبلغت قلوبهم الحناجر قبل ان يدركوا الستين من عمرهم ولست انا سوى ابن العشرين . . .

لذةٌ شعرت بها يوم قيل لي: لم تعد تلميذًا انما انت رجل . . . بهذا اليوم تدرَّعت بالصبر وتنكبت قوسَ الدربةِ واعتقلت رمحَ الاقدام وسللت صارم العزيمة وامتطيت صهوة جوادٍ ضامرٍ . جواد الشبيبة قد استروحَ للقتال عن بعد وصاح: ها . . فدفعت بهِ الى الامام فقال : هيَّا الى الحلبَة . . . وما في الحلبَة ؟ . . .

أقدامٌ تزدحم وراء اصفر رنَّان . عزائم تتصادم طمعًا بعقامٍ خطيرٍ وشرفٍ باذخ . عقول تبرز افكارهــا فتشتبك الافكارُ بالافكار . اقلامٌ مشحوذة ارهف من سيفٍ ذي حدَّين تطاعن دون الاقوال . . فاي معمعةٍ اخوضها واي حرب اصطلي بنارها ؟ . .

انا ابن عشرين بخلَ الدهر عليَّ بالمال ورفعة الشان . سليل عائلة لم تعرف الَّا الجدَّ والتعب لكسب المعيشة . حَسَبُها مخافة الله ونَسَبها ثباتُها في الدين . لم تملك من حطام الدنيا الَّا ما يسدُّ رمقها فما انا بمغيّر خطتها . . . أدعُ المالَ لمن يتهافتُ اليهِ . ورفعةَ الشأن لمن يتطلَّبها . . . في رأسي عقلٌ وفي يُمناي قلم . فسأكتبُ . . .

الآمال واسعة . والمواضيع اوسع . واللغة بحرٌ خضم لا تبخل عليَّ بالكلام . واولو الادب والعلم والحمد لله في عصرنا كثيرون . فماذا اكتب ؟ . . . ساكتب للمحاماة عن الدين ولنُصرَةِ الحقّ . اكتب للدِّفاع عن المظلوم . لرفع شان الاداب . لخدمة الوطن . لمنفعة اهل جلدتي . . . بحول الله

امَّا ما يُخبّئهُ لي الدهر فلا اعبأ بهِ . . . انصرٌ ام قهر ؟ . . . إقبالٌ ام ادبار ؟ . . . أحياة ام موت ؟ . . . هذا سرّ الله وغاية ما اعرف ان من اتكل عليهِ لا يخيب.

مطبوعات شرقية جديدة

H. Vincent. O.P.: CANAAN D'APRÈS L'EXPLORATION RÉCENTE. (Collection « Etudes bibliques »). XII —495 pp., gr. 8°; 11 planches hors texte et 310 fig., *Lecoffre-Gabalda*, 1907.

بلاد كنعان وفقًا للاكتشافات الحديثة

قد توفَّرت المنشورات الحديثة التي تفيدنا عمَّا يكتشفهُ الاثريون كل يوم في انحاء

فلسطين من الآثار الجليلة والعاديات الخطيرة . فاضحت كثرتها آفةً على الدارسين يحتاجون لمراجعتها الى المكاتب الواسعة والمجلات المتعددة . فاراد حضرة الاب ڤنسان من اساتذة مدرسة الاباء الدومنيكيين الافاضل في القدس الشريف ان يسدَّ هذه الثلمة فيجمع في كتاب واحد خلاصة تلك الاكتشافات مع بيان نتائجها الحاضرة دون القطع بامور تحتاج بعد الى نظر ادق والى مزيد ايضاح بعد وجود آثار جديدة . وقد افتتح حضرة المؤلف كتابهُ بمقدمة اعلن فيها غايتهُ ان يجمع في هذا الكتاب محصل الفوائد المستفادة من حفريات تل حسي وتل زكريا وتل الصافي وتل جديدة وتل سند حنَّه وتل جزر وتل تعنك وتل المتسلم وذلك منذ نحو ١٥ سنة . وقد ضرب الصفح عن حفريات اورشليم ولعلهُ يريد ان يفرد لها قسماً كاملًا . اما تقسيم الكتاب فهو بسيط جداً فانَّ فيهِ ثمانية فصول وصف في اولها المدن الكنعانيَّة ثم معابد الكنعانيين ومقاماتهم الدينيَّة ثم اصنامهم ومناسكهم ثمَّ مدافنهم ورتب جنازاتهم ثم آثارهم الخزفيَّة . وكل هذه الفصول تزينها التصاوير البديعة وهي تشمل احوال الكنعانيين منذ اوائل التاريخ الصحيح الى القرن الخامس قبل المسيح . ويلي هذه الابواب بابان آخران احدهما في الآثار الكنعانيَّة السابقة للطور التاريخي في عهد الطور المعروف بالطوراني وعندنا انَّ هذا الفصل لو قُدم على الكتاب لكان انسب وانفع . والباب الثاني اي الاخير في الكتاب مداره عن مقام الكنعانيين ورتبتهم في تاريخ الشعوب القديمة ولولا ضيق المكان لابدينا للمؤلف عدَّة ملحوظات في كتابهِ لاسيما الفصلين الاخيرين وفيهما من الشروح ما لا يفي بالمقصود ولا يسدُّ الخلل . وكذلك استغربنا انشاء الكاتب فانَّ فيهِ كثيراً من الكلام الدخيل والعبارات المستحدثة والغلوَّ في التأنق الزائد واستعمال الغريب ما يجعل قرءاتهُ صعبة . ولو شاء لجعل كلامهُ منسجماً سلساً كما يظهر من بعض فصولهِ التي تشهد لهُ بحسن الكتابة : لكنَّ هذه النقائص اعراض لا تمسُّ جوهر الكتاب ومن ثمَّ نحض كل محبي الدروس الكتابيَّة على اقتنائهِ ولا نستكثر ثمنهُ (١٥ فرنكاً) في جانب فوائدهِ س . ر

Geschichte der japanischen Litteratur von D[r] K. Florenz, *Leipzig, Amelangs Verlags*, II, 1906, 255-643 SS.

تاريخ الاداب اليابانيَّة

قد توجهت انظار الامم الى اليابان منذ اخذت تلك البلاد تجاري اوربة في تمدُّنها من تنظيم عسكري وتجارة وزراعة وصناعة . ومما يستحبهُ الناس معرفة آداب اللغة اليابانيَّة

ومن نبغ فيها من الكتبة منذ اصولها الاولى الى زمننا . وهي الغاية التي يرمي اليها هذا التاليف الذي وصفهُ احد اساتذة الالمان المدعو كرل فلورنس وصف فيه احوال اللغة اليابانيَّة وتقلباتها منذ اوَّل نشأتها وفي اطوارها المختلفة قرناً بعد آخر. وقد سبق للمشرق وصف القسم الاول من هذا الكتاب البديع. والقسم الثاني هذا يشبه الاوَّل بحسن اسلوبهِ وتقسيم مواده وتعريف فنون الكتابة بين اليابانيين منذ القرن الثاني الى أيامنا . ومؤلف الكتاب احد اساتذة كليَّة طوكيو فرتبتهُ هناك ضامنة لتدقيقهِ في التاريخ والوصف . وقد اعجبنا خاصة ما كتبهُ في فنّ التمثيل بين اهل اليابان وما صنَّفوه من الروايات المتعدّدة. وكذلك احسن في وصف الشعراء اليابانيين وانتقى من اقوالهم عدة قصائد نقلها الى اللغة الالمانيَّة . وكنا وددنا لو تحاشى بعض اقوال في حق النصرانيَّة حيث قابل بين بعض تعاليمها وتعاليم البوديين . وكل يعلم انَّ الفرق بين الديانتين كبعد الثريا عن الثرى

الاب ل. شرفاليو

شذرات

اصناف الحيات كان حضرة الاب انستاس في مقالة سبقت في المشرق (٧ : ٩٨٣ — ٩٩١) عن الحيوانات السامَّة ذكر عدداً من الحيَّات العراقيَّة . ثمَّ اتحفنا بنبذة اخرى في متحنة للهوام (ص ٢٤٣) ورد فيها ذكر حيَّات غيرها . وها نحن نضيف اليهما فصلاً استنسخناهُ عن كتاب مخطوط في خزانة كتب لندن (Or. 3690) نريد «كتاب جامع الغرض في حفظ الصحَّة ودفع المرض» لابي الفرج بن يعقوب المعروف بابن قفّ المسيحي . (+١٢٨٦) وهي النسخة الوحيدة منهُ . والفصل المذكور (ص١٣٩—١٤٠) عنوانهُ «اصناف الحيات» نرويه دون القطع بصحَّة مضمونه

(قال) فمنها المكللة وهي مكللة الراس كثيرة ببلاد الترك طولها من شبرين الى ثلاثة اشبار ولونها يميل الى السوَّاد (وهي) حمراء العين حادَّة الراس تحرقُ كل ما يقرب من (نفسها) ولا يثبتُ حولهُ نبات ولا يقربهُ طائر ولا يمرّ بهِ واي طائر مرَّ به سقط ميتاً واذا لدغت انساناً ذاب من ساعتهِ وصار صديداً وكل من قرب من ذلك الميت مات واذا لدغت الفرس ماتت هي والفارس ان كان عليها فارس . ومنها (بنات طبَق) وصفاتها قريبة من صفات المكللة لكنَّها تفارقها في الطول . ومنها الداهه ويعرض لمن لدغتهُ بطلان الحس والحركة حتَّى انَّ من لدغتهُ يبقى كانهُ مبهوت وتلتوي رقبتهُ ويحصل من لدغها كزاز وغشي وعند ما تلدغ تشيل راسها الى فوق وتبصق

السم ويسيل من مكان لدغهـا دم اسود ثم يعرض للملدوغ ان تنغمض عيناه ولا يعيش اكثر من ثلث النهار. ومنها المقرَّنة وطولها من ذراع الى ذراعين وعلى راسهـا سواد كالقرنين ولونها كلون الرّمل وعلى بطنها قشور كالفلوس تكشُّ على الارض. ومنها اللحائيَّة وهي كثيرة. ومنها حيَّة عريضة العُنُق ويعرض من لدغها ما ذكرناهُ مع وَجع شديد واخضرار المكان ولهيب وتأ كُّل ويهلك الملدوغون منها والاكثر في ثلاث ساعات وهذه الانواع جميعها يقال لها الأُل ومن شدة عناية الله تعالى بنوع الانسان جعل خروجها من أجحرها نادرًا جدًا وفي اوقـات معروفة وقد عُرفت تلك الاوقات فمتد بحيثها يُحترز منها. واما الافاعي فمنها الرامه (؟) وهي حيَّة رديئة صابة البطن عليها نقط سود وبيض وطولها قريب من طول المقرَّنة دقيقة الراس والذنب ثقيلة الحركة مستوية الاسنان. ومنها المعطّش وطولها شبر وعلى ذنبها وبدنها اثار صفرة صغيرة الراس غليظة العُنُق دقيقة الذنب نسيلة عند المشي يعترض للسوعها التهـاب شديد وعطش ويشرب دائمًا من غير ان يخرج منهُ شيء بل ينتفخ جوفهُ. ومنها القفّازة وهي حيَّة دقيقة تنفز على من تراه وتكمن في الشجر وترمي نفسها على من تراهُ وتثب متوجهة اليهِ ويعرض لمن لدغتهُ وجع شديد وورم في الاعضاء. ومنها البلّوطيَّة وهي التي تاوي عند شجر البلوط ويعرض لمن لدغتهُ ان ينسلخ جلدهُ ويعرض لمن يطاها ان تنسلخ جلدة قدميهِ ويعرض (لمن يمسها) ان تنسلخ جلدة يده. ومنها افعى ذات راسين تمشي على وجهين. ومنها الغبراء وهي غبراء اللون تقتل بعد شهرين ان لم يداوَ الملدوغ. ومنها البرشاء وتقتل بعد اربعين يومًا ان لم يداوَ ايضًا. ومنها الخرساء وتقتل بعد خمسين يومًا ان لم يداوَ الملدوغ. ومنها حيَّات البيوت والتي تاوي الى الجدران وسم هذه قليل المضرَّة. ومنها حيات الماء وسم هذه اضعف من سم حيات البيوت. ومنها اسود سالخ واذا لدغ في حزيران وتموز قتل لانهُ هيج فيهما

مزولة نبطيَّة المزولة هي الساعة الشمسيَّة سبق لنا ذكرهـا غير مرَّة في المشرق (اطلب مقالة بني موسى في المكحلة ص ٧٥). وممَّا توفَّق الى اكتشافهِ آخرًا الابوان الدومنيكيَّان جوسن وسافنياك مزولة قديمة يرتقي عهدها الى ايام النبطيين وجداها على مقربة من سكَّة حديد الحجاز. وهي اول اثر من هـذا الجنس اكتُشف الى يومنا. وعلى هذه المزولة اسم العامل او الفلكيّ الذي اصطنعها فكتب في كعبها «منَّى برناثان شلوم»

كتابتان عربيتان في ديار بكر مرَّ في بيروت منذ زمن قريب الجنرال دي بيليه (de Beylié) الفرنسويّ راجعًا من بلاد ما بين النهرين وقد وجد في سفرته هذه عدَّة آثار منها كتابتان عربيَّتان في آمد وهي مدينة ديار بكر يُذكر فيهما ان امير حصن كيفا محمود الارتقي ابتنى في سور ديار بكر برجًا لتمكينهِ في سنـة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م). ومن خواص هاتين الكتابتين انَّ فوقهـا صورة نسر ذي راسين وهو شعار بني ارتق كما يُرى على نقودهم وتحت الكتابتين اسدان يناوي احدهمـا

الآخر كانهُ يريد محاربتهُ . اما مصطنع الكتابتين فنصرانيّ يُدعى حنّا بن ابراهيم وهو من اسرة المتولّين دار ضرب النقود

أسئلة وأجوبة

س سأل احد افاضل كهنة الموارنة المستخدمين في دير الكرمل: ١ً هل كان لعكّار اسقف ماروني على طائفتهِ هناك فيما مضى . ٢ً هل موارنة عكّار اصلهم من لبنان او من جهات حمص وحماة ونواحيهما . ٣ً من اين يستقي من اراد ان يبحث عن سائر علماء الموارنة واعمالهم وتآليفهم وزمانهم . ٤ً ما سبب تسمية المغارة التي ينصبُّ منها العاصي بمغارة مار مارون

اسقف وموارنة عكّار . علماء الموارنة . مغارة مار مارون

ج نجيب على (الاوَّل) أننا لا نعرف اسقفاً مارونيّاً اقيم على عكار ولم نجد ذكرًا لذلك في التاريخ . والامر محتمل . وجوابنا على (الثاني) انَّ المرجَّح لدينا بان موارنة عكار اصلهم من جهات حمص وحماة لوقوع عكار في جوار تلك النواحي التي كثر فيها الموارنة سابقاً . ولعلَّ بعض العيال اللبنانيَّة انتقلت ايضاً الى عكّار فاستوطنتها واختلطت باهلها . نجيب على (الثالث) بانَّ الكتب التي يُرجَع اليها لمعرفة علماء الموارنة واعمالهم وتآليفهم وزمانهم منها منشورة بالطبع كتاريخ الموارنة للدويهي وتآليف سيادة المطران الجليل يوسف الدبس وبعض آثار متفرّقة في اعمال السماعنة . ومنها ما لا يزال مخطوطاً في خزائن كتب العامَّة والخاصَّة كرومية وباريس وبكركي وبعض اديرة الرهبان والامل وطيد بنشرها قريباً على يد الافاضل كما فعل حضرة الاب انطون ربّاط في كتابهِ الآثار الخطيَّة لتاريخ الكنائس الشرقيَّة . ونجيب على (الرابع) انَّ المغارة المذكورة دعاها الناس باسم القديس مارون لزعمهم ان ابا الطائفة المارونية تنسَّك فيها مدَّة . ولا اثر لذلك في التاريخ القديم لانَّ القديس مارون الناسك عاش في بلاد قورش . ولحضرة الاب ه . لامنس في ذلك مقالة مطوَّلة مرَّت في المشرق (راجع كتابهُ تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار (١: ١٠٧ و٢: ٧٢ وما يليه)

ل . ش